

أنطوان دي سانت - إكزوبري

طيران ليليّ

ترجمة: وليد السويركي



طيران ليليّ



T



الأهليّة للنشر والتوزيع
e - mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

طيران ليليّ / رواية فرنسيّة
أنطوان دي سانت - إكزوبيري / فرنسا
ترجمها عن الفرنسيّة: د. وليد السويركي

◆

الطبعة العربيّة الأولى، *2019*

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف ***95297109 7 00962***
®

◆

الصفّ الضوئي: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***95349156 7 00962***

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 910 - 9

T

روايات

أنطوان دي سانت - إكزوبري

طيران ليليّ

ترجمة: وليد السويركي



مُقدّمة

بقلم أندريه جيد

كانت المسألة عند شركات الملاحةِ الجويّة هي خوضُ سباق سرعةٍ مع وسائل النّقل الأخرى. هذا ما يوضّحه في هذا الكتاب ريفيير، الشخصيّة القيادية المثيرة للإعجاب: «إنّها بالنسبة إلينا مسألة حياة أو موت، فنحن نخسر كلّ ليلة ما نحرزه من تفوّقٍ خلال النّهار على السّكك الحديديّة والسّفن». هذه الخدمة الليليّة التي كانت محطّ انتقادات كثيرة في البداية، ثمّ باتت مقبولة اليوم، وصارت خدمةً عمليةً بعد مخاطر التجارب الأولى، كانت لا تزال -في زمن هذه القصّة- شديدة الخطورة؛ فهنا، ينضافُ غموضُ الليل الغدّار إلى خطر الطرق الجويّة الملموس، تلك المفروشة بالمفاجآت. ومع أنّ المخاطرَ لا تزالُ كبيرة، إلّا أنّني أسارعُ بالقولِ إنّها ستتناقص يوماً بعد يوم، إذ أنّ كلّ رحلةٍ جديدة ستمهّد الطريق لما بعدها وتضمنُ نجاحها. غيرَ أنّه في الطيران، كما في استكشاف البقاع المجهولة، ثمّة مرحلةٌ أولى بطوليّة، وهنا تتّخذُ «طيرانٌ ليليّ»، التي تصوّرُ لنا المغامرة المأساوية لأحد روّاد الطيران أولئك، وعلى نحو طبيعي تماماً، نبرةً ملحميّة.

T

إنّني أُحبّ كتاب سانت إكزوبيري الأوّل، غيرَ أني أحببت هذا أكثر. ففي روايته «بريدُ الجنوب»، تمتزجُ ذكريات الطيّار المرسومةُ بدقّة مدهشةٍ بحبكةٍ عاطفيّة جعلت البطل أقرب إلينا. آه! كم كنّا نشعر، لفرط حساسيّته العاطفية بأنّه بشرٌ، يمكن النيل منه. أمّا بطل «طيران ليليّ»، فيرتقي بلا شكّ، من غيرِ أنْ يُجرّدَ من بشريّته، إلى فضيلةٍ فوق بشريّة. وأعتقد أنّ ما يعجبني على وجه الخصوص في هذه القصة المؤثّرةِ هو نُبلها. فنحنُ نعرفُ أكثر ممّا ينبغي حالات ضعف الإنسان وخذلانه وسقطاته، والأدب يبرع في أيامنا كلّ البراعة في كشفها، لكنّ تجاوزَ الذّات، ذلك الذي تنجح فيه الإرادة الطموحة، هو ما نحتاج تحديداً أنْ يُصوّر لنا.

وتبدو لي أشدّ إدهاشاً بعدُ من شخصية الطيّار، شخصيّةُ رئيسه ريفيير، فهو لا يعملُ بنفسه، بل يجعل الآخرين يفعلون، فيبثُّ في الطيارين فضائله، ويطالبهم ببذل أقصى جهدهم، ويجبرهم على الإنجاز. وحزمُه وصرامتُه لا يتسامحان مع الضّعف، فأقلُّ تقصيرٍ عنده يجرّ العقاب. وقد تبدو قسوته، للوهلة الأولى، مفرطة ولا إنسانيّة. لكنّها تقعُ على مَواطنِ القصورِ، لا على الإنسان نفسه الذي يزعم ريفيير أنّه يصوغه. ويستشفُّ المرءُ إعجابَ المؤلّفِ بتلك الشخصيّة من خلال تصويره لها. وإنّني لَأشكُر له، خاصّةً، إضاءته هذه الحقيقة المتناقضة التي تُعدُّ في نظري ذات أهميّة نفسية عظيمة: ليست سعادةُ الإنسان في الحريّة، وإنّما في تقبّلِ واجبٍ ينهض به. فكلّ شخصيّة من الشخصيّات في هذا الكتاب تنصرف كليّاً وبحماسٍ متّقد إلى ما يجب عليها فعله؛ إلى تلك المهمّة المحفوفة بالمخاطر، حيث لا راحة ولا سعادَة إلّا بإنجاز تلك المهمّة.

T

كما نلمحُ جيّداً أنّ ريفيير ليس أبداً بالشّخص عديم الإحساس(فليس هناك ما هو أشدُّ إثارةً للمشاعر من سرد الزيارة التي تلقّاها من زوجةِ الطيار المفقود) وأنّه لا يحتاجُ من الشجاعة لإعطاءِ الأوامرِ أقلّ ممّا يحتاجهُ الطيارون لتنفيذها.

يقول ريفيير: «لكي تُحَبّ، يكفي أنْ تُشفِقَ. وأنا لا أشفقُ، أو أنّني أخفي شفقتي... وأحياناً تدهشني قوّتي». أو كما يقول في موضعٍ آخر: «أحبِبْ من تقودهم؛ ولكن من دون أن تخبرهم بذلك.»

وذلك أنّ الشّعور بالواجب هو ما يهيمن على ريفيير. «الشعورُ الغامض بواجبٍ هو أعظم من الشّعور بالحبّ»، وأنّ الإنسانَ لا يجد غايته في ذاته، بل يخضع لشيء لا نعرفه ويضحّي في سبيله، وهذا الشيءُ يحكمه ويستمدّ حياته منه. وأودُّ أن أستحضرَ هنا ذلك «الشعور الغامض» الذي كان يدفع بروميثيوس[1] إلى القول في ما يبدو مفارقةً: «أنا لا أحبّ الإنسان، وإنّما أحبُّ ما يستعر في أعماقه». وهذا هو منبعُ كلّ بطولة: «إنّنا نتصرّف، كان ريفيير يفكّر، كما لو أن شيئًا ما يتجاوز في قيمته الحياة الإنسانية... لكن ما هو هذا الشيء؟» ثمّ: «لعلّ ثمّة شيئاً آخر أدومُ لا بدّ من إنقاذه؛ ربما هو هذا الجزء من الإنسانِ ما يعمل ريفيير على إنقاذه». دعونا لا نشكّ بذلك.

---

(1) المقصود شخصية بروميثيوس في مسرحية من تأليف أندريه جيد نفسه بعنوان «بروميثيوس في قيد لم يُحكم». صدرت عام 1925.

T

أولسنا نرى الشجاعة تتجلّى، في هذا الزمن الذي يميلُ فيه مفهومِ البطولة إلى هجر الجيوش-بما أنّه قد لا يكون لقيمِ الرجولة وظيفةٌ في حروب الغد التي يدعونا الكيميائيّون إلى استشراف مستقبلها المرعب-، بأروع صورها وعظيمِ جدواها في عالم الطيران؟ فما يمكن أن يُعدّ جرأة يتوقفّ عن كونه كذلك إذا ما تعلّقَ الأمر بخدمةٍ تؤدّى بالأمر. إنّ للطيّار الذي يخاطر بحياته، بلا توقّف، الحقَّ في أن يبتسم أمام فكرتنا المعتادة عن «الشجاعة». وليَسمَحْ لي سانت إكزوبيري بأنْ اقتبس رسالةً له، باتت الآن قديمة، تعودُ إلى أيّام كان يحلّق فوق موريتانيا وهو يخدم خطّ الدّار البيضاء-داكار:

«لا أعرف متى سأعود، لديّ عمل كثير منذ بضعة أشهر: البحث عن رفاق مفقودين، وإنقاذ طائرات سقطت في الأقاليم المُنشقّة، وبعض الرحلات إلى داكار.

«أنجزت للتوّ مأثرة صغيرة، فقد قضيتُ يومين وليلتيْن مع أحد عشر موريتانيّاً وميكانيكيّ من أجل إنقاذ طائرة. تلقّيت إنذارات بالخطر مختلفةٍ وجديّة، وسمعت، لأوّل مرة، أزيز الرصاص فوق رأسي. وعرفت أخيراً ما كنتُه في ذلك الجوّ: كنت أكثر هدوءاً من الموريتانيّين. لكنّي فهمت أيضاً ما كانَ يحيّرني دوماً: لماذا وضع أفلاطون (أو أرسطو؟) الشّجاعة في المرتبة الأخيرة من الفضائل. فهي ليست مصنوعة من مشاعر جميلة: شيءٌ من الغضب، وقليلٌ من الغرور، وكثيرٌ من العناد والمتعة الرياضيّة المبتذلة، وعلى وجه الخصوص تمجيدٌ لقوّة المرء البدنية، مع أنّه لا صلة لها بالأمر. تعقدُ ذراعيك فوق قميصك المفتوح وتتنفّس جيداً. أمرٌ لطيف على الأرجح. وحينَ يحدثُ ذلك ليلاً، يمتزج معه الشعور بأنك قد

T

ارتكبتَ حماقةً فادحة. لن أُعجبَ بعدَ اليومِ أبداً برجل يكون شجاعاً فقط.»

يمكنني أن أضع، تصديراً لهذا الاقتباس، قولاً مأثوراً من كتاب كنتون (مع أنّي ما زلتُ لا أستحسنه): «يخفي المرء شجاعته كما يخفي حبّه»؛ أو ما هو أبلغُ بعدُ: «يُخفي الشجعانُ أفعالهم كما يخفي الشرفاء صدقاتهم؛ يكتمونها أو يعتذرون عنها.»

يروي سانت إكزوبيري كلّ ما يروي «عن معرفة»، فالمواجهة الشخصيّة مع خطر متكرّر تمنح كتابه نكهةً أصيلةً لا تقبل التقليد. لقد عرفنا العديد من قصص الحرب أو المغامرات الخياليّة التي أبان فيها المؤلفّ أحياناً عن موهبة مطواعة، لكنّها جديرةٌ بأنْ تثيرَ ابتسامةَ المغامرين الحقيقيّين أو المقاتلين الذين يقرؤونها. أمّا هذه القصّة، التي تعجبني أيضاً بقيمتها الأدبيّة، فلها من ناحية أخرى قيمةً توثيقيّة، وهاتان المزيّتان المتّحدتان، على نحو يفوق التوقّع، تمنحان «طيران ليليّ» أهميّتها الاستثنائية.

أندريه جيد

T

إلى السيّد ديديه دورا

T

1

كانت التلال، أسفل الطائرة، قد بدأت تحفر خطوط ظلالِها في ذهب المساء، والسهولُ تتوهّج، لكنْ بضوءٌ لا ينفد، فهي لا تنفكُّ في هذا البلد تمنح ذهبَها، مثلما لا تنفكّ تمنحُ ثلجَها حتّى بعد انقضاء الشّتاء.

عرف الطيّار فابيان، الذي كان عائداً ببريد باتاغونيا، من أقصى الجنوب إلى بوينس آيرس، أنّ المساء يقترب، بفضل العلاماتِ ذاتها التي تعُرف بها مياهُ الميناء: ذلك الهدوء، وتلك التجاعيدُ الخفيفةُ التي كانت ترسمُها بالكاد سحبٌ هادئة. كان يدخل مرسىً شاسعاً ومباركاً.

كان بوسعه أيضاً أنْ يتخيّل نفسه في نزهة متمهِّلةٍ وسط ذلك الهدوء، مثلَ راعي أغنامٍ. فرعاةُ باتاغونيا يمضون بلا تعجّلٍ من قطيعٍ إلى قطيعٍ، وكان هو في تنقّله من مدينة إلى أخرى راعيَ المدن الصغيرة؛ يلتقي كلّ ساعتيْن من تردُ منها ضفاف الأنهار لِتشربَ أومن ترعى سهلَها.

كان يمرُّ في بعض الأحيان، بعد اجتياز مئات الكيلومترات من السّهوب الأقفرِ من البحر، بمزرعة ضائعةٍ تبدو كأنّها تحملُ في الخلف، في موجٍ من المروج، شحنتها من حيوات البشر، فيحيّي تلك السفينةَ بجناحَي طائرته.

٥٤٣

T

«سان جوليان تلوح في الأفق؛ سنهبط في غضون عشر دقائق.» مرّر مشغّل اللّاسكي الملّاحُ الخبرَ إلى محطّات ذلك الخطّ الجويّ كافّة.

كانت محطّاتٌ مماثلةٌ تَتَالى على امتداد ألفين وخمسمائة كيلومتر من مضيق ماجلّان إلى بوينس آيرس؛ لكنّ هذه المحطّةَ تنفتحُ على حدود الليل مثلما تنفتح على الغموضِ آخرُ قرية مستسلمةٍ في إفريقيا.

مرّر مُشغّل اللّاسلكيّ ورقةً إلى الطيّار:

- ثمّة عواصف كثيرة، حتّى أنّ الشّحنات الكهرومغناطيسية تملأ سّماعاتي. هل ستبيتُ في سان جوليان؟

ابتسم فابيان، كانت السماء هادئةً مثل أكواريوم، وجميع المحطّات أمامهما ترسلُ الإشارة التالية: «سماء صافية، لا رياح». فأجاب:

- فَلْنُواصِل.

لكنّ مشغّل اللّاسلكيّ كان يعتقدُ أنّ عواصفَ قد استقرّت في مكان ما، كما تستقرّ ديدان في الفاكهة. سيكون الليل جميلاً ولكن فاسداً. كان يشعر بالتقزّز من الدّخول في تلك العتمةِ التي توشك أن تتعفّن.

أثناء هبوطهما، بعد إبطاء المحرّكِ فوق سان جوليان، شعر فابيان بالتّعب. أخذ يتعاظمُ من حوله كلُّ ما يجعل حياة البشر عذبةً: بيوتهم، ومقاهيهم الصغيرة، والأشجارُ حيثُ يتنزّهون. كان أشبه

T

بفاتحٍ يتأمّلُ مع نهاية فتوحاته أراضيَ إمبراطوريّته، فيكتشف سعادة البشرِ البسيطة. أحسّ فابيان بالحاجةِ لأن يُلقيَ سلاحه، لِيشعرَ من جديد بثقل وجوده وأوجاعه، فالمرءُ غنيٌّ أيضاً ببؤسه، وبكونه إنساناً بسيطًا ينظر من خلال النّافذة إلى مشهدٍ ثابتٍ على الدّوام. كان سيقنع بهذه القرية الصغيرة، فالمرء يرضى، بعد أن يختار، بصدفة وجوده وقد يحبّه، فيطوّقه هذا الوجود مثل الحبّ. ودّ فابيان لو يعيش هنا طويلاً، فيأخذ حصّته من الأبديّة هنا، فقد كانت المدن الصغيرة، حيث يعيش مدة ساعة واحدة، والحدائقُ المسوّرة بجدران عتيقة، تبدو له بفعل ديمومتها خارج ذاته، قِطَعاً من الأبديّةِ.

كانت القرية تعلو نحو الطائرة وتنفتحُ أمامها، فيما فابيان يفكّرُ في الصداقات والفتياتِ الحنونات، وحميميّة الملاءات البيضاء، وكلِّ ما أخذ يتآلفُ ببطء مع الأبديّة، والقرية تنسابُ ملامسةً جناحي الطائرة، كاشفةً سرّ حدائقها المغلقة، التي لم تعد جدرانها تحميها. لكنّ فابيان عرف بعد أن هبط أنّه لم ير أي شيء سوى حركةٍ بطيئة لبعض الناسِ بين حجارة القرية. كانت القريةُ تصون، بسكونها فقط، سرَّ شغفها وتمنع عن الآخرين عذوبتها. لابدّ له إذن من طرح مشاغل الحياةِ جانباً، إذا ما أرادَ أنْ يظفرَ بها. كان على فابيان أن يستأنف رحلته بعد أن انقضت دقائق التوقّف العشرة، فاستدار ملتفتاً صوب سان جوليان، التي لم تعد سوى حفنةٍ من أضواء، ثمّ نجومٍ، ثمّ غبار نجميّ ما لبث أن تبدّد، وقد أغواه للمرّة الأخيرة.

«لم أعد أرى لوحة العدّادات، سأشعل الضوء.»

لمس أزرار الإشعال، لكنّ المصابيح الحمراء في حجرة الطيّار سكبت نحو المؤشّراتِ ضوءاً ذائباً في الضوء الأزرق، بحيث لم يفلح

T

في صبغها بحمرته. فقرّب أصابعه من مصباح كهربائيّ، لكنّها لم تكد تصطبغُ.

«مبكّرٌ جداً.»

مع ذلك، كان الليل يرتفع مثل دخان مظلم ليغمرَ الوديان مبكّراً، فلم يعدُ ممكناً تبيّن الوديانَ من السّهول، رغم أنّ القُرى كانت قد بدأت تضيء، وتجيبُ كلّ كوكبة منها الأخرى، وفابيان يطلق هو أيضاً بلمسةٍ من إصبعه وميض أضواء طائرته، ليردّ عليها. عجّت الأرضُ بنداءاتٍ ضوئيّة، وكان كلّ بيتٍ يضيء نجمته في مواجهة الليل الشّاسع كما يُصوَّبُ ضوءُ منارةٍ نحو البحر، وصارُ كلّ ما يشملُ الحياة البشرية يلتمعُ بالأضواء. وقد أعجب فابيان أنّ الدخول في الليل كان هذه المرّة أشبه بالدخول في مَرسى، بطيئاً وجميلاً.

دسّ رأسه في حجرة الطيّار. بدأ الراديوم المنبعثُ من المؤشّرات يتوهّج. فحص الطيّارُ الأرقام واحداً تلو الآخر، فشعر بالرضا. اكتشف أنّه يجلسُ راسخاً في تلك السماء. وحين لمس بإصبعه لمساً خفيفاً دعامةً فولاذيّة، شعر بالحياةِ تسري في المعدن؛ لم يكن المعدن يهتزّ، بل يحيا. كانت قوّة المحرّك البالغة خمسمائة حصان تولّد في المادّةِ تيّاراً بالغ العذوبة، يحّول جليدَها إلى جسدٍ مخمليّ. هذه المرّة أيضا، لم يختبر الطيار أثناء الرحلة لا الدُّوار ولا الانتشاء، بل العمل الغامضَ لجسدٍ ينبضُ بالحياة.

لقد أعاد ترتيب عالمٍ لنفسه الآن، وها هو يسعى لِأنْ يستقّر فيه مرتاحاً.

T

نقر خفيفاً على لوحة التوزيع الكهربائية، ولمس المفاتيح واحداً تلو الآخر، ثم تحرّك قليلاً وعدّل جلسته لِيُسندَ ظهره على نحو أفضل، باحثاً عن الوضع الأمثل الذي يجعله يحسّ أكثرَ بتأرجحات خمسة أطنان من المعدن، محمولةً على كتفيْ ليلٍ مائج. ثمّ أخذ يتلمّس ثانية؛ وصَلَ مصباح الطوارئ ثمّ أفلته، ثمّ عاد ووصله، وتأكّد من أنّه لن يفلت مجدّداً، ثمّ تركه مرّة أخرى متلمّساً كلّ مقبضٍ من المقابض لِيتيقنّ من قدرته على الوصول إليها، وليدرّب أصابعه على التعامُل مع عالمٍ أعمى.

وبعد أنْ خبرت أصابُعه ذلك العالم جيّداً، أجاز لنفسه أنْ يُضيء مصباحاً، لِتزدانَ حجرته بأدواتها الدقيقة، وأخذ يراقبُ تقدّمه في الليل الحالك من خلال أجهزة قياس الطيران وحدها، كمن يغوص في الماء. وإذ لم يكن ثمّةَ ما يخفقُ أو يهتزُّ أو يرتجف، وحيثُ ظلّت قراءات الجيروسكوب ومقياسِ الارتفاعِ وعدّاد دوران المحرّكِ ثابتةً، فقد تمطّى قليلاً، وأسندَ رقبته إلى وسادة المقعد الجلديّ، وراح في ذلك التأمّل العميق في فعل التحليق، حيث يتلذّذ المرءُ بأملٍ يتعذّر تفسيره.

والآن، مثل حارسٍ في قلب الليل، ها هو يجد أنّ الليل يكشف الإنسان: هذه النداءاتُ وهذه الأنوار وهذا القلق. ذاك النّجمُ البسيط في العتمة عزلةُ بيتٍ، وهذا الذي ينطفئ: بيتٌ ينغلِق على حبّه.

أو أنّه ينغلقُ على سأَمِه. إنّه بيتٌ توقّف عن بثّ إشاراته إلى بقية العالم: لا يُدركُ أولئك الفلاحون الملتفّون حول المائدة، أمام

T

مصابيحهم، عِظَمَ ما يرجون، ويجهلون أنّ توقهم إلى النُّورِ ذاك، يمتدّ بعيداً إلى أعماق الليل الهائل الذي يُطبقُ عليهم. لكنّ فابيان يكتشف ذلك حين يأتي من على بعد ألف كيلومتر، فيشعر بأمواجِ قاعٍ عارمةٍ ترفع الطائرة التي تتنفّس وتهبط بها، بعد اجتيازه عشر عواصف كأنها بلاد حربٍ تتخلّلها هدنات من ضوء القمر، وبلوغه فسحاتِ النور تلك واحدةً تلو الأخرى، وقد تملّكه الشعور بالانتصار. يظنّ أولئك النّاس أنّ مصباحهم ينير المائدة المتواضعة وحسب، لكن ها هو على بعد ثمانين كيلو متراً عنهم، يتأثّرُ حقّاً بنداء ذلك النور، كما لو كانوا يلوّحون به يائسين، من على جزيرة مقفرةٍ، أمام البحر.



2

هكذا، كانت الطائرات الثلاث المحمّلة بالبريد من باتاغونيا وتشيلي والباراغواي عائدة من الجنوب والغرب والشمال إلى بيونيس آيريس. وكانَ يُنتظرُ أنْ تُفرغ حمولتها عند منتصف الليل كي تتمكّن طائرة أوروبّا من الإقلاع بعد ذلك.

ثلاثة طيّارين، كلّ منهم يجلسُ تحت سقف محرّك ثقيلٍ مثل قاربٍ مسطّح، تائهين في الليل، يتأمّلون رحلتهم. سيهبطون نحو المدينة الهائلةِ، ببطءٍ من سمائهم عاصفةً كانت أم هادئة، مثل فلّاحين غريبين يهبطون من جبالهم.

كان ريفيير، المسؤولُ عن الشبكة بأكملها، يجولُ عرضاً وطولاً في مهبطِ بوينس آيرس، لائذاً بالصّمت؛ فحتّى وصولِ الطائرات الثلاث، ظلّ ذلك اليومُ يثير مخاوفه. كان ريفيير يدرك دقيقةً بدقيقةٍ، ومع توالي البرقيّات التي تَرِدُ إليه، أنّه إنما ينتزع شيئاً من يد القدر، ويقلّل حصّة المجهول، وينتشلُ أفرادَ طاقمه من اللّيل نحو الشاطئ.

اقترب أحدُ العمّال من ريفيير لِيبْلغَه رسالة من محطة اللاسلكيّ:

– طائرة بريد تشيلي تشير إلى أنّها تلمحُ أضواء بوينس آيرس.

– هذا جيّد.

لم يلبث ريفير أنْ سمع صوت تلك الطائرة: ها هو الليلُ يُسلِمُهُ واحدة من الطائرات، كما لو أنّ بحراً هائلاً بمدّه وجزره وغموضه أعاد إلى الشاطئِ الكنز الذي كانَ قد رماه فيه منذ زمن بعيد. ولاحقاً، سيستلمُ منه الاثنتيْنِ الباقيتيْنِ.

سينتهي هذا اليوم إذن. وستخلد الطواقم المنهكة إلى النّوم، لتحلّ محلّها طواقم جديدة. لكنّ ريفير لن ينعم بأيّةِ راحة؛ فطائرة أوروبّا ستثقله هي الأخرى بالمخاوف. هكذا سيكون الحال أبداً. لكنْ هذه هي المرّة الأولى التي يستغربُ فيها هذا المحاربُ القديم شعورَه بالتّعب. لن يكون وصول الطائرات أبداً ذلك النصرَ الذي ينهي حرباً ويفتتح حقبة سلام سعيد. وسيكون حاله إلى الأبد حال من يخطو خطوة تكتمل، لِتسبقَ ألف خطوة مثلها.

كان يبدو لريفير أنّه يحملُ بذراعيْن ممدودتين، ومنذ مدّةٍ طويلة، حِملاً ثقيلاً للغاية؛ جهداً مبذولاً بلا راحة ولا رجاء. «إنّني أشيخ...» إنّه يشيخُ إنْ لم يَعُدْ يجد في الفعل وحدَه ما يغذّي وجوده. استغرب أنّه يفكّرُ في مشكلاتٍ لم يطرحها على نفسه من قبل قطّ، ومع ذلك كانت ترتدّ إليه، بوشوشة كئيبة، ومثل محيط ضائع، أغلب ملذّات الحياةِ التي دائماً ما طرحها جانباً. «أكلّ ذلك قريب جدّاً إذن؟..» أدركَ أنّه قد أرجأ شيئاً فشيئاً إلى الشيخوخة، إلى «حين يسمحُ الوقت»، كلَّ ما يجعل حياة البشر عذبةً، كما لو كان بإمكاننا حقاً أن نحصل يوماً ما على هذا الوقت، كما لو كنا سنبلغ في آخر الحياة، ذلك السلام السّعيد. لكنْ ما من سلام، وما من نصر ربّما، وما من وصولٍ نهائيّ للرّحلات[1] جميعها.

---

(1) الكلمة الفرنسية courrier تعني أيضا: بريد، ساعٍ، طائرة أو سفينة تقوم برحلات منتظمة. (المترجم)

T

توقف ريفيّر أمام لورو، وهو رئيسُ عمّالٍ مُسنٌّ، كان عاكفاً على عمله. يعملُ لورو هو الآخر منذ أربعين عاماً، ويسلبه العمل كلّ قواه. حينَ كان لورو يعودُ إلى بيته في حوالي العاشرةِ مساءً أو منتصف الليل، لم يكن ينفتحُ أمامه عالمٌ آخر، ولا فسحةٌ للهروب. ابتسم ريفيير للرجل الذي رفع وجهه المكدّر، وهو يشير إلى محور معدنيّ مُزرقّ: «قاومَ طويلاً، لكنّني نلتُ منه أخيراً». انحنى ريفيير على المحور، وأمعن النّظر. «ينبغي أن تطلب من المشاغل أنْ تُرخيَ شدّ هذه الأجزاء قليلاً». تحسّس بإصبعه آثار الاحتكاك الناجمة عن فكّ المحور، ثم تأمّل لورو مرّة أخرى. تبادر إلى شفتيْه سؤالٌ طريف، أمام تلك التجاعيد القاسية، فابتسم:

«هل انشغلت بالحبّ كثيراً في حياتك يا لورو؟

– آه! الحبّ، كما تعلم يا سيّدي المدير...

– أنت مثلي إذن، لم يكن لديك الوقت.

– ليس كثيراً.

كان ريفير يصغي لنبرة صوته ليتبيّن إنْ كانَ الجواب يشي بالمرارة: لم يكن ثمة مرارة، كان الرجل يحسُّ أمامَ حياته الماضية بشعور الرضا الهادئ، شعور نجّارٍ فرغ للتوّ من صقل قطعة خشب بديعة:

– «ها قد تمّ الأمر».

– «ها هي ذي حياتي قد تمّت»، فكّر ريفير.

دفع عنه كل الأفكار الحزينة النابعةِ من تعبه، واتّجه إلى حظيرة الطائرات، فقد كانت طائرة تشيلي تهدر.

T



T

3

كان هديرُ المحرّك البعيد يقترب أكثر فأكثر، كان ينضج. أُشعلت الأضواء، فكشفت مصابيحُ لافتاتِ التوجيه الحمراءُ عن حظيرة طائرات، وأبراج لاسلكيّة، وميداناً مربّع الشكل. كانوا يجّهزون لحفلٍ.

- ها هي!

كانت الطائرة قد بدأت تتحرّك في حزمة الضوء المنبعثة من الفنارات، زاهية اللمعان حتّى بدت كأنّها جديدة. لكنْ حينَ توقّفت أخيراً أمام الحظيرة، وبينما الميكانيكيّون والعمّال يهرعون لتفريغ شحنتها من البريد، لم يتزحزح الطيارُ بيليران من مكانه.

- ماذا تنتظر كي تنزل إذن؟

كانَ الطيارُ منشغلاً بمهمة غامضةٍ، فلم يكلّف نفسه عناء الرّد.

ربما كان ما يزال يسمع ضجيج الرّحلة كلّه يمرّ من خلاله. هزّ رأسه ببطء، ومال إلى الأمام ممسكاً بما لسنا ندري. وأخيراً استدار نحو الرؤساء والرّفاق، متفحصّاً إيّاهم بجديّةٍ واحداً واحداً، كما لو كانوا ممتلكاته. بدا أنه يعدّهم ويقيسهم ويزِنهم، وكان يفكّر أنه قد حازهم حقّاً، كما حاز حظيرة الحفل وذلك الأسمنت الصّلب،

وأبعد منه، تلك المدينة بنبضها ونسائها ودفئها. كان يحمل ذلك الحشد في راحتيه الواسعتين كأنّهم رعاياه، بما أنّه كان قادراً على لمسهم وسماعهم وشتمِهم. فكر أوّلاً في أن يشتمهم لوجودهم هنا هادئين، واثقين من أنّهم يحيون، متأمّلين القمر بإعجاب، لكنّه كان حليماً:

- ستدفعون ثمن الشراب!

ثم نزل.

أراد أن يروي رحلته:

- آه! لو عرفتم ما حدث!

ومضى لِيخلع عنه بذلة الطيران، ظانّاً أنّه قد قال ما يكفي.

حين أقلّته السيّارة إلى بوينس آيرس بصحبة مفتّشٍ كئيب، مع ريفيير الغارق في صمته، أحسّ بالحزن: رائعٌ أنْ تنجو من المخاطرَ وأن تطلِق بكلّ ما أوتيت من قوة، بعد أن تثبّت قدميك على الأرض، وابلاً من الشتائم. يا لها من فرحة قويّة! ولكن بعد ذلك، حينَ تتذكّر، يعتريك الشكّ في أمر لا تدري ما هو.

الصّراعُ في قلب الإعصار حقيقيٌّ، وواضحٌ على الأقل، لكنْ ليس هذا هو حال وجهُ الأشياء، ذلك الوجه الذي تتّخذه عندما تظنّ نفسها وحيدة. ثمّ فكّر:

«الأمر يشبه تماماً حالة تمرّد؛ وجوهٌ تشحب، لكنّها تتبدّل إلى حدٍّ كبير!

بذلَ جهداً كي يتذكّر.

كان يجتازُ بسلامٍ سلسلة جبال الأنديز، التي كان ثلج الشتاء يثقلُ كاهلها بكل ما فيه من سكينة. كان ثلج الشتاء قد أحلّ السكون في تلك الكتلة الجبليّة، كما تفعل القرون المتعاقبة في القصور الميّتة. فعلى امتداد مئتي كيلومترٍ من الكثافة الثلجيّة، لم يكن ثمة إنسان، ما من نفحةِ حياةٍ، وما من حركة؛ بل قِممٌ رأسية يكادُ يلامسها على ارتفاعِ ستة أميالٍ، ومعاطفُ من الصخر تهوي عموديّاً، وهدوءٌ عظيم.

حدث ذلك عند قمّة توبونجاتو...

فكّر، نعم، هناك شهِد المعجزة.

إذ لم يكن قد رأى شيئًا في بادئ الأمر، بل كان يشعرُ بالضيق فقط، مثل شخص كان يخال نفسه وحيداً، فإذا به لم يعد كذلك، وإذا ثمّة من ينظرُ إليه. كان قد شعر، متأخّراً جدّا ومن دون أنْ يفهم كيف، أنّه محاطٌ بموجةِ غضبٍ عارمة. حسناً. من أين جاء كلّ ذلك الغضب؟

ما الذي جعله يخمّن أنّها كانت تنزُّ حجارةً، أنّها كانت تنزُّ ثلجاً؟ إذ لم يبدُ أنّ ثمّةَ ما يتقدّم صوبه، لم تكن أية عاصفة غامضة قد انطلقت. لكنّ عالماً لا يكاد يكون مختلفاً كان ينبثق أمام عينيه من العالم الآخر. أحسّ بيليران بانقباضٍ في قلبه يصعبُ وصفه وهو يحدُّق في تلك الذّرى البريئة؛ تلك القمم والنتوءات الثلجيّة المرمدّة قليلاً، التي بدأت تدبّ فيها الحياة للتّو- مثل شَعْب.

من دون أنْ يُضطرّ للمجاهدة، شدّ بيديه على مقابضِ القيادة. شيء ما لم يدرِ ما هو كان يتهيّأ للحدوث. كان بيليران يشدُّ عضلاته

T

مثل وحش يتأهبُ للقفز، لكنّه لم يرَ حوله أيّ شيءٍ يخرج عن هدوئه. نعم، كان كلّ شيءٍ هادئاً، لكنّه مشحون بطاقةٍ غريبة.

ثم ازدادت حدّة الأشياء كلّها. تلك النتوءات، وتلك القمم، كلّها ازدادت حدّةً، حتّى ليشعر المرءُ بأنّها كانت تخترقُ الرياحَ العاتية مثل حيازم السّفن. ثم بدا له كأنّها تدور من حوله وتنحرفُ مثل بوارج عملاقة تتأهّب للقتال.

ثمّ هاج غبارٌ، مختلطاً بالهواء. كان يعلو، خافقاً ببطء مثل شراعٍ على امتداد الثّلوج. باحثاً عن مخرج في حال اُضطر للانسحاب، استدار فارتجف، فقد بدت سلسلة الجبال بأكملها، في الخلف، كأنّها تغلي.

– لقد ضِعت.

في الأمام، كان الثلجُ يتدفّقُ من إحدى القمم: بركانٌ من الثلج. ثمّ من قمّة ثانية إلى اليمين قليلاً، وهكذا اشتعلت القمم كلّها واحدة تلو الواحدة، كما لو أنّ عدّاءً خفيّاً قد أضرمها تباعاً بشعلته. ومع أولى الزوابع، مادت الجبالُ من حوْل الطيّار.

لم يترك هذا الحدث الفعل العنيفُ في نفسه سوى آثارٍ طفيفة، إذ لم يعد يتذكّر الزوابع الهائلة التي لفّته، بل كان يتذكر فقط أنّه صارع، بغضبٍ، وسط ألسنة اللهب الرّمادية تلك.

وفكّر:

«ليس الإعصار في حدّ ذاته، شيئاً، فنحن نخرجُ منه سالمين. لكنْ ماذا عمّا سبقه! ذلك اللقاء الذي وقع قبله!

كان يخيّل إليه أنّه عرف وجهاً من بين ألف؛ وجهاً معيّناً، لكنّه سرعانَ ما نسيه.

T

4

كان ريفير ينظر إلى بيليران. حين سينزل هذا الأخيرُ من السيارة، بعد عشرين دقيقة، سينخرط في الحشد، وقد تملّكه شعورٌ بفتور العزيمة والثّقل. ربّما كان يفكّر: «إنّني متعبٌ حقّاً... يا لها من مهنة قذرة!» وسيبوح لزوجته بشيء من قبيل: «المرء هنا أفضل ممّا لو كان في جبال الأنديز». ومع ذلك، فإن كلّ ما يحرص عليه البشر بقوة يكاد يكون غادَره، فقد عرف للتّو بؤس ذلك الحرص، وعاش بضع ساعات على الجانب الآخر من المشهد، دون أن يدري إنْ كانَ سيُقدّر له أنْ يستعيدَ هذه المدينةَ بأضوائها، أو أنْ يستعيد من جديد صديقات طفولةٍ، مضجراتٍ ولكن عزيزاتٍ، عيوب البشر الصغيرة كلّها.

فكّر ريفير: «في كلّ حشدٍ ثمّة رجالٌ لا نميّزهم. وهم رسلٌ مذهِلون دون أنْ يعرفوا هم أنفسهم ذلك. ما لم...». كانَ ريفير يتوجّس من بعض المعجبين، ممن لا يفهمون قُدسيّة المغامرة، فتُشوّه صيحاتُ إعجابهم معناها، وتنتقص من إنسانيّةِ صاحبها. لكنّ العظَمة التي حافظ عليها بيليران هنا تكمن في معرفَته خيراً من أيّ أحدٍ آخر قيمةَ العالم حينَ يُرى من منظور معيّن، وفي رفضِه الإطراءات المبتذلةِ وازدرائه الشديد لها. لذلك هنّأه ريفير وسأله: «كيف استطعتَ أنْ تنجحَ في المهمّة؟» فأحبّه حين قصَر إجابته ببساطةٍ على الأمور المهنيّة، وتحدّث عن رحلة طيرانه كما يتحدّث حدّادٌ عن مطرقته.

شرح بيليران في البداية قراره بعدمِ الانسحاب، وكأنّه يعتذر: «لم يكن لديّ خيار آخر». ثمّ كيف لم يعد يرى شيئاً، إذ أعماه الثّلج، لكنّ تيّارات عاتية أنقذته رافعةً إيّاه إلى ارتفاع سبعة أميال. «كان عليّ أن أبقى على حافة القمم طول الطريق». تحدّث أيضاً عن الجيروسكوب وكيفَ كانَ عليه أنْ يغيّر فتحة الهواءِ فيه بعد أنْ سدّها الثلج: «يتكوّن فيها جليدٌ، أترون». ثمّ كيف قلبت تياراتٌ أخرى طائرة بيليران، وأنّه عند ارتفاع ثلاثة آلاف ميل، لم يكن لِيفهمَ كيفَ أنّه لم يصطدمِ بشيءٍ حتّى تلك اللحظة. والحقيقةُ أنّه كانَ قد بدأ يحلّق فوق السّهل. «أدركتُ ذلك فجأةً، حينَ بلغت سماءً صافية». وأوضح أخيراً أنّه أحسّ في تلك اللحظة أنّه يخرجُ من كهف.

- هل كان هناك عاصفةٌ أيضاً في مندوزا؟

- كلّا، لقد هبطتُ عبرَ سماءٍ صافية، وبلا رياح. لكنّ العاصفة كانت تتبعني عن قرب.

ثمّ وصف العاصفة لأنّها كما قال كانت «غريبة». كانت قمّة الجبل تختفي عالياً في الغيوم الثلجيّة لكنّ قاعدته تندفع فوق السهل كحممٍ سوداء، مبتلعةً المدن واحدةً تلو الأخرى. «لم أر ذلك قطّ من قبل...» ثم صمت، وقد استحوذت عليه بعض الذكريات.

التفت ريفير صوب المفتّش.

- إنّه أحد أعاصير المحيط الهادئ، وقد حُذّرنا منه بعد فوات الأوان. لكنّ هذه الأعاصير لا تتجاوز عادةً جبال الأنديز. ولم يكن بوسعنا التنبؤ بأنّ هذا الإعصار الأخير سيواصل سيره نحو الشرق.

أومأ المفتّشُ الذي لم يكن يعرف شيئاً بهذا الشأن موافقاً.

ثمّ بدا متردّداً، التفت صوب بيليران وقد اهتزت تفاحةُ آدم في عنقه، لكنّه صمت. ثمّ استعاد بعد تفكيرٍ وهو ينظر أمامه مباشرة، وقارَه الكئيب.

كان يجرجر تلك الكآبة وراءه مثل حقيبة. لقد وصل إلى الأرجنتين في الليلة السابقة، باستدعاء من ريفيير من أجل مهمّاتٍ غامضة. كان متلبّكاً بيديه الكبيرتين وبوقاره كمفتّش. فلم يكن لديه الحق في الإعجاب بالخيال ولا بالإلهام، لكنّه كان يُعجبُ، بحكمِ وظيفته، بدقّةِ المواعيد. ولم يكن له الحق كذلك في شرب كأس رفقة الآخرين أو برفع الكلفة مع زميلٍ في العمل أو المزاح لعباً بالألفاظ، إلّا إذا التقى في صدفة غير محتملة بمفتّش آخر في مهبط واحد. خطر له: «إنّه لأمر شاقٌّ أن يكون المرء قاضياً.»

والحقيقة أنّه لم يكن يقضي، بل يهزّ رأسه. ولأنّه كان يجهل كلّ شيء، فقد كان يهزّ رأسه ببطء أمام كلّ ما يقابله، وكان ذلك يربك أصحاب الضمائر المعذّبة ويُسهم في ضمان صيانةٍ سليمةٍ للمعدّات. لم يكن محبوباً إلّا فيما ندر،لأنّ المفتش لم يُخلق لمسرّات الحبّ؛ بل لكتابةِ التقارير. وقد تخلّى عن اقتراح أساليب جديدة وحلول فنيّة في تقاريره منذ أن كتب ريفيير: «المطلوب من المفتّش روبينو أن يزوّدنا بتقارير، لا بقصائد. وليَستخدم المفتّشُ روبينو كما يطيب له مهاراته الأخرى في الشدّ من عزيمة الموظّفين.» منذئذ، أخذ المفتش روبينو يصبّ اهتمامه على الإخفاقات البشرية كما لو كانت خبزه اليوميّ؛ على الميكانيكي الذي يشرب الكحول، ورئيس محطة التوقّف الذي يسهر حتّى الصّباح، والطيّار الذي يتسبّب بارتطام أثناء الهبوط.

كان ريفيّر يقول عنه: «ليس ذكيًا جدّاً، لكنّه، بذلك، يقدّم خدمات كبيرة. كانت إحدى القواعد التي ألزم بها ريفير نفسه هي معرفة الرجال؛ أمّا بالنسبة لروبينو، فلم يكن هنالك سوى معرفة اللّوائح.

ذات يوم قال له ريفير:

- «روبينو، عليك أنْ تلغي مكافآة دقّة المواعيد لكلّ طائرة يتأخّر إقلاعها.»

- «حتى في حالات القوّة القاهرة؟ حتّى بسبب الضباب؟»

- «حتّى بسبب الضباب.»

كان روبينو يشعر بشيءٍ من الفخر بأنّ له قائداً لديه من قوّة الشخصيّة ما يجعله لا يخشى أنْ يكون ظالماً. وكان هو نفسه يستمدُّ بعض الهيبة من تلك القوة الجارحة.

- لقد أخّرتم الإقلاع حتى السادسة والرّبع، «كان يكرّر القول لاحقاً لمديري المطارات، لايمكننا أن ندفع لكم مكافأتكم.»

- «لكن، يا سيّد ربينيو، في الخامسة والنّصف، لم نكن نرى حتى على بعد عشرة أمتار!

- هذه هي اللائحة.

«لكن يا سيد روبينو، لا يمكننا أن نكنس الضّباب!

كان روبينو يلوذ بسرّه، فبوصفه جزءاً من القيادة، كان وحده من بين تلك الدّمى النّشطة يدركُ أنّه حين يُعاقَب الرجالُ، يتحسّن الطّقس.

T

كان ريفيير يقول عنه: «إنّه لا يفكّر في شيء، وهذا يجعله لا يخطئ التفكير».

إذا أتلف طيّارٌ طائرةً، فإنّه يفقدُ علاوة عدم الإتلاف.

- «ولكن ماذا لو حدث العطلُ فوق غابة؟ استعلم روبينو.»

- «حتّى فوق غابة.»

ولم يكن ثمّة حاجة لتذكير روبينو بالأمر بعد ذلك.

- أنا آسف، كان يقول لاحقاً للطيّارين، وبنشوةٍ ظاهرة، آسفٌ إلى أبعد حدّ، ولكن كان ينبغي أن يحدث العطلُ في مكانٍ آخر.

- لكن يا سيّد روبينيو، نحن لا نختار!

- هذه هي اللائحة.

كان يخطر لريفير: «إنّ اللائحة أشبهُ بالطقوس الدّينية التي تبدو عبثيّةً لكنّها تصوغ الرجال. لم يكن يهمّه أنْ يبدو منصفاً أو ظالماً. ولربّما لم يكن لهاتيْنِ الكلمتيْن أيّ معنىً عنده. كان البرجوازيون الصّغار في المدن الصغيرة يدورون ليلاً حول منصّات الفرق الموسيقيّة، بينما ريفيير يفكّر: «منصفاً إيّاهم أم غيرَ منصف، ليسَ لهذا أيّ معنى؛ فهم غيرُ موجودين.»

كان الإنسانُ في نظره شمعٌ خامٌ لا بدّ من تشكيله؛ لا بدّ من إعطاء روح لهذه المادّة، وخلق إرادةٍ لها. لم يكنْ يفكر باستعبادهم عبرَ هذه القسوة، بل بقذفهم خارج ذواتهم. وإذا كان يعاقِبُ على كلّ تأخيرٍ بهذه الطريقة، فإنّه يرتكب حقّاً فعلاً ظالماً، لكنّه يحفّز إرادةَ كلّ ميناء جويّ على احترام مواعيد الانطلاق، بل هو يخلقُ تلك الإرادة.

T

لم يكن يسمح لرجاله بأنْ ينعموا بالطقس السيّئ بوصفه دعوة للراحة، بل كان يبقيهم في حالةِ استنفار إلى أن يصفوَ الجوّ من جديد، وكان حتى أصغر العمّال يشعر في سرّه بالإذلال بسبب هذا الانتظار، فكانوا يستغلّون أول ثغرة تحدث في درع السّماء: «ثمة انفراجٌ في الشّمال، فلْنَنطلق!»

هكذا، تفوقت عبادةُ البريد بفضل ريفيير على كلّ شيء، على امتداد خمسَة عشرَ ألف كيلومتر.

كان ريفيير يقولُ أحياناً: «هؤلاء الرجال سعداء لأنهم يحبّون ما يفعلونه، وهم يحبّونه لأنّي أقسو عليهم.»

ربّما عانى الأخرون بسببه، لكنّه كان يهَب الرجال بهجاتٍ عظيمة. وكان يفكّر: «ينبغي دفعهم نحو حياة قويّة تجلب الآلام والأفراح معاً، لكنّها الحياة الوحيدة التي يُعتدّ بها.»

عندما دخلت السّيارة المدينة، طلب ريفيير من السائق أن يوصله إلى مكتب الشركة. بقي روبينو وحده مع بيليران. التفت نحوه، وانفرجت شفتاه وقد همّ بالكلام.

T

5

كان روبينو ضجراً ذلك المساء، حيث اكتشف، في مواجهة بيليران المنتصر، أنّ حياته حياةٌ رمادية. واكتشف على وجه الخصوص أنّه هو، روبينو، رغم صفته مفتّشاً ورغم سلطته، كان أقلّ قيمةً من ذلك الرجل المنهك المحشور في زاوية السيارة، مغمض العينين، وقد سوّد الزيت يديه. كانت المرّة الأولى التي يشعر فيها روبينو بالإعجاب. كان بحاجةٍ لأنْ يصرّح بذلك، وبحاجةٍ على وجه الخصوص لأنْ يحظى بالصداقة. وكان قد سئم رحلته وما شابها من إخفاقات في ذلك اليوم. بل وربّما شعر أنه سخيفٌ بعض الشيء. ففي مساء ذلك اليوم، تاه في حساباته وهو يتفقّد مخزون الوقود، حتى أنّ الموظّفَ نفسه الذي أراد روبينو أنْ يفاجئه، أشفق عليه وأنهى الحسابات عوضاً عنه. والأدهى من ذلك أنّ ربينو انتقد الطريقة التي رُكّبت بها مضخّة زيتٍ من نوع B.6، لظنّه أنّها مضخة من نوع B.4، فتركه الميكانيكيّون الماكرون يستهجن لمدة عشرين دقيقةٍ «جهلاً لا عذر له»؛ جهله هو بالذات.

كان خائفاً أيضاً من غرفته في الفندق. فمن تولوز إلى بوينس آيرس، كان يعودُ إليها مباشرة بعد العمل، فيحبس نفسه فيها، مثقلاً بالوعي بما يحمل من الأسرار؛ يُخرِجُ من حقيبته حزمةً من الأوراق، ويكتب ببطء: «تقرير»، يخطّ بضعة أسطرٍ كيفما اتفق، ثمّ يمزّقُ كلّ

T

شيء. كان يودّ لو ينقذ الشركة من خطر عظيم، لكنّها لم تكن عرضة لأيّ خطر. ولم يكن قد أنقذ حتّى ذلك الوقت سوى محور مروحةٍ أصابها الصّدأ. بدا حينها منزعجاً وهو يمرّر إصبعه ببطء على الصدأ، أمام رئيس إحدى ساحات الطيران[1] الذي أجابه: «عليك أن تتوجّه إلى المحطّة السابقة؛ فهذه الطائرة وصلت للتوّ من هناك. فاعترى روبينو الشكُّ حول طبيعة دوره.

أرادَ أنْ يتقرّب إلى بيليران، فجازف بالقول:

– هل تتناول العشاء معي؟ أحتاج إلى التحدّث قليلاً، مهنتي شاقّة في بعض الأحيان...

ثم صحّح نفسه، كي لا يبدو متعجّلاً في رفع الكلفة.

– لديّ الكثير من المسؤوليات!

لم يكن مرؤوسو روبينو يحبّذون إقحامه في حياتهم الخاصّة. كان كلّ منهم يفكّر: «إذا كان لم يعثرُ حتّى الآن على ما يملأ به تقريره، فإنّه في جوعه لذلك سيلتهمني».

---

(1) في بدايات الطيران، كانت الشركات الجوية تستخدم، لغرض توقّف طيّاراتها للتزود بالوقود أو أعمال الصيانة، ساحات طيران تملكها أو تعود لغيرها، يقوم عليها فريق تابع للشركة، رئيسه مسؤول عن حركة الطائرات والأشخاص التابعين للشركة في الموقع، وقد انتهت هذا الممارسة مع تطور حركة الطيران واعتماد أبراج المراقبة والتحكم في المطارات. (المترجم)

لكن روبينو لم يكن يفكّرُ في ذلك المساء إلّا في متاعبه: الجسد المُصاب بأكزيما مُزعجة، هي سرّه الحقيقي الوحيد. ودّ لو يروي هذا السرّ، لو أنّ أحدهم يُشفَق عليه، ولأنّه لم يكنْ يجدُ عزاءه في الكبرياء، ودّ لو يبحث عنه في التواضع. ثمّ إنّ لديه عشيقةً في فرنسا كان يروي لها عشيّةَ عودته في كلّ مرة أعماله التفتيشية، لكي يبهرها ويجعلها تحبّه، فتنفر منه فجأة. كان بحاجةٍ أيضاً لأنْ يتحدّث عنها.

- إذن، هل تتعشّى معي؟

وافقَ بيليران بدماثة.

T

T

6

كان النّعاسُ يسيطرُ على المساعدين في مكاتب بوينس آيرس حين دخل ريفيير. كان لا يزال يرتدي معطفه وقبعته، شبيهاً بمسافرٍ أبديّ. لم يكدْ يلحظ مروره أحدٌ، لأنّ قامته الصّغيرة لم تكن تحرّك سوى القليل من الهواء، كما أنّ شعره الرماديّ وملابسه عديمة الهويّة كانا يتلاءمان مع الديكورات جميعها. ومع ذلك، فقد دبّ الحماس في الرّجال، فتحرّك الموظّفون، وتفقّد رئيسُ المكتب على عجلٍ الأوراق الأخيرة، وبدأ صوت الآلات الكاتبة يعلو.

شبك عامل الهاتف وصلات جهازه، وبدأ يدوّن البرقيّات في دفترٍ سميكٍ.

جلس ريفيير وأخذ يقرأ.

بعد محنةِ تشيلي، أعاد قراءة حكاية يومٍ سعيدٍ انتظمت فيه الأمور من تلقاء نفسها، حيث كانت الرسائل، القادمةُ واحدةً تلو الأخرى من المطارات التي عُبرت، تحمل أخبارُ نصرٍ أكيدة. كانت طائرة بريد باتاغونيا هي الأخرى تتقدّم بسرعة متقدّمة على موعدها حسب الجدول الزمنيّ، حيث كانت الرياح تدفعُ من الجنوب إلى الشمال الموجةَ العظيمةِ المواتية.

- أحضِر لي رسائل الطقس.

كان كلّ مطارٍ يتباهى بطقسه الصّحو، وسمائه الصافية، ونسيمه العليل. مساءٌ ذهبيٌّ جلّل أمريكا. فرحَ ريفيير بما أبدتْه الأشياء من ودٍّ. فصحيحٌ أن الطائرة كانت تصارع في مكان ما وسط أخطار الليل، لكنّ حظوظها في النجاح كانت كبيرة.

أعادَ ريفيير دفتر البرقيّات.

– الأمور جيّدة.

ثمّ خرج لِيُلقي نظرةً على الأقسام، حارسَ ليلٍ يسهر على نصف العالم.

توقّف أمام نافذة مشرعة، فأدرك عظمة اللّيل. كانَ اللّيل يلفُّ بوينس آيرِس، ويلفّ كذلك أمريكا مثل صحْن كنيسةٍ هائل. لم يندهش لذلك الشّعور بالعظمة؛ فمع أنّ سماء سانتياغو دي تشيلي سماءٌ أجنبيّة، إلّا أنّه ما إنْ تنطلق طائرة البريد نحو المدينة، حتّى يعيش الجميع، من أوّل خطّ الرحلة إلى آخره تحت القبّة العميقة ذاتها. وتلك الطائرة الأخرى التي يُرصدُ صوتُها عبر سمّاعات البثّ اللاسلكي الآن، يرى صيّادو باتاغونيا بريق أضوائها، وحين يثقلُ اضطرابها خلال تحليقها على ريفيير، فإنّه يُثقل بهدير محرّكها أيضاً على العواصم والأقاليم.

سعيداً بتلك الليلة الصافية، أخذ يتذكّر الليالي المضطربة، حيث كان يبدو له أنّ الطائرة قد دخلتْ في مأزقٍ خطيرٍ يصعبُ إنقاذها منه. كانوا يرصدُون من محطّة اللاسلكي في بوينس آيرس أنينها الممتزج بهدير العواصف الرعدية، فيتبدّد ذهبُ الموجةِ الموسيقيّة تحت تلك السماء الكئيبة. أيّ حزنٍ في النشيد الخافت لطائرةٍ قُذفت مثل سهمٍ أعمى في مجاهل الليل!

كان ريفيير يرى أنّ مكان المفتش في ليلةٍ ترقّبٍ هو المكتب.

- أرسلوا من يأتيني بروبينو.

كان روبينو على وشك أن يكسب صداقة طيّارٍ. لقد أفرغ في الفندق حقيبته الشخصيّة أمامه؛ فتكشّفت عن تلك الأشياء الصغيرة التي تجعل المفتّش يقترب من بقية البشر: بعض القمصان رديئة الذوق، ولوازم الزينة، ثم صورة امرأة نحيلة، علّقها المفتّش على الجدار. هكذا، كان يعترف لِبيليران باحتياجاته الشخصيّة وعواطفه وحسراته. كان يبسط بؤسه أمام الطيار، في ضربٍ من «الإكزيما» النفسيّة، كان يُرِيهُ سجْنه.

لكنّ روبينو كان يحتفظ، كما جميع الرجال، ببصيص من الضوء. أحسّ بمتعةٍ كبيرةٍ وهو يسحبُ من قاع حقيبته كيساً صغيراً لُفّ بعناية. ربَت عليه طويلاً من دون أن ينطق بكلمة. ثمّ أرخى يديه أخيراً وقال:

- جلبتُ هذا من الصحراء الكبرى...

احمّر المفتش خجلاً لتجرّئه على الكشف عن أمرٍ كهذا. كان روبينو يواسي نفسه إزاء خيباتِه وتعاسته الزوجيّة وواقِعه الكئيب بحُصيّاتٍ ضاربة إلى السواد، تفتحُ له باباً على المجهول.

زاد احمراره قليلاً:

- يوجدُ مثلها في البرازيل...

ربتَ بيليران على كتف المفتّشِ المهتّم بالبحث في مسألة الأطلنطس.

T

سأل بيليران، من باب اللباقة أيضاً:

- هل تحبّ الجيولوجيا؟

- إنّها شغفي. في هذه الحياةِ، وحدها الحجارة كانت رقيقةً في نظره.

أصاب الحزن روبينو حين نادوه، لكنّه سرعان ما استعادَ هيبته.

- عليّ أن أتركك، فالسيد ريفيير يحتاجني لاتّخاذ بعض القرارات الحاسمة.

عندما دخل روبينو المكتب، كان ريفيير قد نسيَه. كان يتأمّل أمام خارطة جداريّة حُدّدت عليها بالأحمر شبكةُ خطوط الشركة. كان المفتّش في انتظار أوامره. وبعد دقائق طويلة، سأله ريفيير من دون أن يلتفت إليه:

- ما رأيك بهذه الخارطة يا روبينو؟

كان يطرح أحياناً، بعد أنْ يصحو من تأمّلٍ عميق، بعض الألغاز.

- هذه الخارطة، سيّدي المدير...

لم يكن المفتّش، في الواقع، يفكّر بأيّ شيء، وإنّما يحدّق عابساً في الخارطة، متفقداً بالجملة أوروبا وأمريكا بينما يتابع ريفيير تأمّلاته من دون أنْ يُشركه فيها: «وجهُ هذه الشّبكة جميلٌ، لكنّه قاسٍ. لقد كلّفتنا الكثير من الشّبان. إنّها تفرضُ نفسها هنا بما للأشياء راسخةِ البنيان من سلطةٍ، ولكن كم تخلق من مشكلات!» غيرَ أنّ الغاية عند ريفيير تحكم كلّ ما عداها.

تمالك روبينو، الواقف بجواره مواصلاً التحديق في الخارطةِ، نفسَه شيئاً فشيئاً. لم يكنْ يرجو من ريفيير أيّة شفقة.

كان قد جرّب ذات مرّةٍ حظّه في استدرار شفقة ريفيير معترفاً أمامه بأنّ حياته مدمرّة بسبب مرضه السخيف، فما كان من ريفير إلّا أنْ أجابه مازحاً: «إذا كان المرض يمنعك من النّوم، فإنّه سيثير نشاطك.»

ولم تكن تلك نصف مزحةٍ، فقد اعتاد ريفير القول: «إذا كان أرَقُ الموسيقيِّ يجعله يصنع أعمالًا جميلة، فأنْعِم به من أرق». وذات يومٍ أشار إلى لورو قائلاً: «انظروا إلى هذا، كم هي جميلة هذه الدّمامة التي تَصدّ الحب...» ولربّما كان لورو مدينٌ بكلّ ماهو عظيم في شخصه لذلك القبح، الذي جعله يقْصِر حياته على المهنة.

- هل تربطك صِلةٌ قوية ببيليران؟

- ها!

- أنا لا ألومك على ذلك.

استدار ريفير نصف استدارة، ثمّ سار بخطى وئيدة مطأطئ الرأس، جارّاً روبينو معه. ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة لم يفهمْها روبينو.

- لكنْ... لكنْ أنت الرّئيس.

- نعم، قال روبينو.

خطر لريفيير أنّه في كلّ ليلةٍ، ثمّة حدث يُحاك في السماء مثل قصة درامية، وأنّ من شأن أيّ وهنٍ يصيب العزائم أن يقود إلى

T

الهزيمة، وقد يتوجّب خوضُ صراعٍ مريرٍ منذ اللحظة حتّى طلوع الفجر.

– عليك الالتزام بمهامّك.

كان ريفييرُ يزنُ كلماته:

«قد تضطر لأنْ تأمرَ هذا الطيار في الليلة القادمة بالإقلاع في رحلةٍ خطيرة، وسيكون من واجبه أن يطيع.

– نعم...

– حياةُ كثيرٍ من الرّجال تكادُ تكون رهن يديك... رجالٌ قد يكونون خيراً منك»...

ثمّ بدا عليه التردّد.

– هذه مسألةٌ خطيرة.

صمتَ ريفيير بضعَ ثوانٍ، وهو يواصل السير بخطوات صغيرة.

– إنْ هم أطاعوك بحكم الصداقة، فهذا يعني أنّك تخدعهم. وليس من حقّك أنْ تطلب منهم بذل أيّة تضحية.

– كلّا...بالطبع.

– وإذا ظنّوا أن صداقتك ستعفيهم من بعض المهام الشاقّة، فإنّك تخدعهم أيضاً: يجب عليهم حقّاً أن يطيعوا. اجلس هنا.

دفعَ ريفيير روبينو بيده إلى مكتبه برفقٍ.

T

- سأحلّك في مقامك يا روبينو. إذا كنت متعبًا، فليس على هؤلاء الرجال أنْ يقدّموا العون لك. أنت الرئيس، ومن السخف أن تكون ضعيفاً. اكتُب.

- أنا...

- اكتب: «المفتّش روبينو ينُزل بالطيّار بيليران عقوبة كذا، بسبب كذا...» ستجد سبباً، أيّاً كان.

- سيّدي المدير!

- تصرّف كما لو أنّك تفهم يا روبينو. أحِبْ من تقودهم، لكنْ من غير أنْ تخبرهم بذلك.

مرّة أخرى إذن، وبحماس، سيجعلهم روبينو ينظفّون محاور المراوح.

وصلت برقية من محطة إنقاذ أرضية: «طائرةٌ في الأفق. الطائرة تشير: تراجع في قوة المحرّك. هبوطٌ وشيك».

سنخسر نصف ساعةٍ بلا شكّ. انتاب ريفيير ذلك الضِّيق الذي يشعر به المسافر حين يتوقّف القطارُ السريعُ على السكّة، فلا تعود الدقائق تهبه حصّتها من منظر السهول المتلاحقة.

كان عقربُ ساعةِ الحائط الكبيرِ يشير في تلك اللحظة إلى حيّز ميّت؛ أحداث كثيرة كان يمكنُ أنْ تقعَ في دورة الفرجار تلك. خرج ريفيير لِيُخاتل الانتظار، فبدا له الليل فارغاً كمسرحٍ بلا ممثّلين. «أليلةٌ كهذه تضيع!» كان ينظر بضغينةٍ عبرَ النافذة إلى تلك السماء

T

الصافية الغنيّة بالنجوم، إلى تلك اللافتات الإلهية المضيئة، إلى ذلك القمر، وذهب ليلةٍ كتلك يتبدّد.

ولكن ما إنْ أقلعت الطائرة، حتّى عادت تلك الليلة في نظر ريفيير جميلةً ومثيرة للمشاعر. كانت تحمل الحياة في أحشائها، وكان ريفيير يوليها رعايته:

- أيَّ طقسٍ تواجهون؟ سأل الطاقمَ.

مرّت عشر ثوانٍ:

- طقساً جميلا جدّاً.

ثم توالت أسماء بضع مدن اجتازوها، كانت في نظر ريفيير مدناً تسقط تباعاً في تلك المعركة.

T

7

أحسّ مُشغّلُ اللاسلكيّ الملّاحُ على متن طائرة «باتاغونيا»، بعد ساعةٍ من التحليق، كما لو أن كتفاً ترفعه برفق. نظر حوله؛ كانت الغيوم الثقيلةُ تطفئ النجوم. انحنى صوب الأرض باحثاً عن أضواء القرية التي تشبه ديدانَ برّاقةً مختبئة في العشب، لكنْ لا شيء كان يُضيء في ذلك العشب الأسود.

انتابَهُ الكدرُ، إذ أدرك أنّها ستكون ليلةً صعبة: سيرٌ إلى الأمام ثم تراجع، مرّة تلو المرّة، أقاليمُ ينبغي التخلّي عنها بعد الاستيلاء عليها. لم يكن يفهم تكتيكات الطيار. وبدا له أنّهما سيصطدمان عمّا قريب بسماكةِ الليل كمن يصطدم بجدار.

والآن لمح أمامهما وميضاً خفيّاً على حافة الأفق، مثل وميض مصْهرٍ للحديد. لمس مُشغّل اللاسلكيّ كتف فابيان، لكنّ هذا الأخير لم يتحرّك.

كانت زوابعُ الإعصار البعيد الأولى قد بدأت في مهاجمة الطائرة. وأخذت الكُتل المعدنيّة، وقد رفُعت برفق، تضغط بثقلها على جسد مُشغّل اللاسلكيّ، ثم بدا وكأنها تتلاشى وتذوب، فشعر لبضعِ ثوانٍ بأنّه يطفو وحيداً في الليل،فتشبّثَ بكلتا يديه بالعوارض الفولاذيّة.

T

ولأنه لم يعد يرى شيئًا في العالم عدا مصباح حجرة الطيّار الأحمر، فقد انتابته رعدةٌ لشعوره بأنّه كان يهوي في أعماق الليل، بلا مغيث، لا يحميه سوى مصباح صغير؛ مصباح عامل منجم. لم يجرؤ على إزعاج الطيّار لِيعرفَ ماذا سيكون قراره، وبيديه المتشبّثين بالفولاذ، منحنياً صوبه، كان يحدّق في ذلك العنق القاتم.

رأسٌ وكتفان ثابتتان كانا كلُّ ما يظهر في الضوء الخافت. لم يكن ذلك الجسد سوى كتلة داكنة مائلةٍ قليلاً إلى اليسار، الوجهُ مقابلَ العاصفة، يتلوّن ربّما، مع كلّ وميض. لكنّ مُشغّل اللاسلكيّ لم ير شيئاً من ذلك الوجه. فقد ظلّ كلّ ما يرتسم عليه من مشاعر تتبدّى عادةً عند مواجهة العاصفة؛ كالتّجهّم والعزم والغضب، وكلّ تفاعلٍ جوهريّ بين الوجه الشاحب هنا وتلك الومضات الخاطفة التي تتولّد في الإعصار هناك، ظلّ ممتنعاً عليه.

لكنّه كان يحدس، مع ذلك، بالقوّة المتكتّلة في ثبات ذلك الطيف، وكان يحبّه. ربّما كان يأخذه إلى قلب العاصفة، لكنّه كان يحميه في الوقت ذاته. ولا شكّ في أنّ هاتين اليدينِ، الممسكتيْنِ بعصا القيادة، تُثقلان بالفعل على العاصفة، كما لو كانتا تضغطان على عنق وحشٍ من الوحوش، غير أنّ الكتفيْن القويتين كانتا تحافظان على ثباتهما، كاشفتين عن مخزون عظيم من القوة.

فكّر مُشغّل اللاسلكيّ أنّ الطيّار هو المسؤول في نهاية المطاف. كان يتلذّذ في تلك اللحظة، رديفاً على صهوةَ ذلك الحصانِ الراكضِ نحو النار، بكلّ ما يعبّر عنه ذلك الطّيف القاتمُ أمامه، هناك، من حضور ماديٍّ، وثقلٍ، وديمومة.

T

لَمعت إلى اليسار، واهنةً مثل منارةٍ متقطِّعة الضوء، بؤرةُ عاصفة جديدة.

فتقدّمَ مُشغّل اللاسلكيّ لِيلْمسَ كتف فابيان محذِّراً، لكنّه رآه يديرُ رأسه ببطء، ليواجه لبضع ثوان هذا العدوّ الجديد، ثم يستعيد تدريجياً وضعيّته الأولى، الكتفين ثابتتين دوماً، والعنق مستندٌ إلى الوسادة الجلديّة.

T

T

8

خرج ريفير ليتنزّه قليلاً ويراوغ ذلك الشعور بالضّيق الذي عاوده. أحسّ على نحو غريب، هو الذي لم يعش إلّا للفعل فقط؛ الفعل الدراماتيكيّ، بهذه الدراما تغيّر مسارها وتأخذ منحىً شخصياً. وخطر له أنّ صغار البرجوازيّين في المدن الصغيرة، المتحلّقين حول منصّات الفرق الموسيقيّة، يعيشون حياة صامتةً في الظاهر، لكنّها مُثقلةً بالمآسي أيضاً؛ بالمرض والحبّ والحِداد، وأنّ ألمه الخاصّ ربّما... كان يعلّمه أشياء كثيرة: «إنّه يفتح بعض النوافذ»، فكّر.

غادرَ إلى مكتبه عند الحادية عشرة مساءً، وقد بدأ يتنفّسُ على نحوٍ أفضل. شقّ على مهلٍ الحشد الواقف أمام صالات السينما بكتفيه، ورفعَ نظره إلى النجوم التي تلمع فوق الطريق الضيّق، وقد حجبتها أو كادت الملصقاتُ البرّاقة، وفكّر: «هذه الليلةَ، مع طائرتيَّ المحلّقتين، أنا مسؤول عن سماءٍ كاملة، وهذه النجمة ليست سوى علامةٍ تفتّشُ عنّي وسط هذا الحشد، فتعثر عليّ، وهذا هو سببُ شعوري بأنّني غريبٌ قليلاً، ووحيدٌ قليلا».

ثمّ خطرت له جملة موسيقية: بضع نوتاتٍ من سوناتا كان يستمع إليها في اليوم السابق مع بعض الأصدقاء. لم يفهمه أصدقاؤه: «هذا النّوع من الفن يضجرنا ويضجرك، لكنّك لا تعترف بذلك.»

«ربما...» أجاب.

T

شعر حينها، كما في هذا المساء، بأنّه وحيد، لكنّه سرعان ما اكتشف ثراء هذه الوحدة. كانت رسالةُ تلك الموسيقى تأتي إليه، وإليه وحده من بين حشد الناس العاديّين، عذبة مثل سرٍّ، وكذا علامةُ النجمة. كانتا تتحدّثان إليه من فوق أكتافٍ كثيرة بلغةٍ هو وحدهُ من يسمعها.

على الرصيف، كانوا يزاحمونه بمناكبهم. ففكّر ثانيةً «لن أغضب. إنّني مثل والد طفلٍ مريض، يمشي وسط الحشد بخطواتٍ بطيئة، حاملاً في أعماقه صمتَ بيتِهِ المُطبقَ.»

رفع بصره إلى النّاس. كان يسعى لأن يتبيّن مِن بينهم من كانوا يتنزّهون على مهل، حاملينِ في صدورهم ابتكاراً أو حبّاً، وهو يفكّر في عزلة حُرّاس المنارات.

راقه صمتُ المكاتب.عبرها متمهّلاً واحداً تلو الآخر، وخطوته ترنُّ وحيدة. كانت الآلات الكاتبة تنام تحت الأغطية، والخزائن الضخمةُ تنغلقُ على الملفّات المرتبّة: عشرة أعوامٍ من الخبرة والعمل. خُيّل إليه أنّه يزور أقبية أحد البنوك، هناك حيث تتكدّسُ الثروات. وخطر له أنّ كلّ واحد من تلك السّجلات في مكتبه يراكم ما هو خيرٌ من الذهب: قوةً حيّة؛ قوة حيّة، لكنها نائمة مثل ذهب البنوك.

في مكان ما، سيلتقي المعاونَ الوحيد المناوب. رجلٌ يعملُ في مكانٍ ما كي تستمرّ الحياةُ، وتستمرّ الإرادة، هكذا من محطّة توقّفٍ إلى محطّةٍ أخرى، كي لا تنقطعَ السلسةُ أبداً، من تولوز إلى بوينس آيرس.

«هذا الرجل لا يعرف مدى عظَمَته.»

T

كانت الطائرات تصارع في مكان ما. والطيران الليليّ يستمرّ مثل مرض؛ حيث ينبغي السهرُ والترقّب، ومساعدة أولئك الرجال الذين يواجهون الظلام بأيديهم وركبهم، صدراً لصدر، والذين لا يعودون يعرفون شيئاً آخر سوى الأشياء المتحركّة واللا مرئية، ويتعيّنُ عليهم أن ينتشلوا أنفسهم من العتم بقوة أذرعهم العمياء، كما لو من بحرٍ: ويا لها من اعترافات رهيبةٍ أحياناً: «أضأتُ على يديّ كي أراهما...» مخملُ يَديْنِ وحده يتجلّى في حوض تحميض الصّور الأحمر الذي تصيره حجرة الطيّار، هو ما يتبقّى من العالم، وهو ما ينبغي إنقاذه.

دفع ريفير باب مكتب العمليّات. كان مصباحٌ وحيدٌ مضاءٌ يرسم في إحدى الزوايا شاطئاً واضح المعالم.

نقرات آلةٍ كاتبة وحيدة كانت تهبُ معنىً لذلك الصمت، من دون أنْ تملأه. كان الهاتف يرنُّ أحيانًا، فينهض المعاون المناوب ويسيرُ نحو ذلك النداء المتكرّر والعنيد والحزين. يرفع السمّاعة فيهدأ القلقُ الخفيّ: كانت محادثةٌ رقيقة جدّاً في ركن معتم. ثمّ يعود الرجل، ببرود أعصابٍ إلى مكتبه، ووجهه مغلق بالعزلةِ والنّعاس على سرٍّ يتعذّر اكتشافه. أيُّ خطرٍ قد تحذّرُ منه مكالمةٌ تأتي من ليلِ الخارج، بينما تحلّق طائرتا بريدٍ في السماء؟ فكر ريفير في البرقيّات التي تستلمها العائلات الملتمّة حول مصابيح المساء، ثمّ في المصيبة التي تبقى، لثوانٍ تكادُ تصيرُ أبديّةً، سرّاً مخبوءاً في تعابير وجه الأب. في البدء موجةٌ خائرة القوى، أبعدُ ما تكونَ عن الصرخة المنبعثة،

T

موجةٌ هادئة جداً. وفي كلّ مرة، يسمع ريفير صداها الضعيف في تلك الرّنةِ الخافتة. كانت حركة الرّجل التي جعلتها العزلة بطيئة كخطواتِ سبّاحٍ بين مائين، تبدو له، كلّما عاد من العتمةِ إلى مصباحه مثل غوّاصٍ يصعدُ من الأعماق، مثقلةً بالأسرار.

- ابقَ أنت. سأردُّ أنا.

رفع ريفير السّماعة، واستقبل همهمة العالم.

- هنا ريفير.

ضجيج خفيفٌ، ثمّ صوت:

- أمرّر إليك محطّة اللاسلكي.

ضجيج آخر، صادر عن وصلات المقسم، ثمّ صوت آخر:

- هنا محطّة اللاسلكي. نرسلُ لكم البرقيات.

أخذ ريفير يدوّنها ويهزُّ رأسه:

- حسناً... حسناً...

ما من شيء مُهم. إنّها رسائل الخدمة المعتادة. ريو دي جانيرو تطلب الحصول على معلومات، مونتيفيديو تتحدّثُ عن الطقس، ومندوزا عن المعدّات. كان ذلك ضجيج البيت المألوف.

- و ماذا عن طائرتي البريد؟

- الجوّ عاصف. لا نسمع الطائرات.

- حسناً.

حدّث ريفير نفسه بأنّ الليلة هنا كانت صافية، والنجومَ ساطعة، لكنّ عمّال التلغراف يستشعرون فيها هبوب أعاصير بعيدة.

- إلى اللقاء بعد قليل.

نهض ريفير، فَدَنا منه المعاون:

- المذكّراتُ الإداريّة يا سيّدي.. جاهزة لتوقيعك.

- جيّد...

اكتشف ريفير أنّه يكنّ مودّة كبيرة لهذا الرجل، الذي كان هو الآخر ينوء بثقل الليّل، وفكّر: «رفيق نضالٍ هو. ربّما لن يعرف أبداً كم تُوحّدنا هذه المراقبة الليليّة.»

T

9

حين وصلَ ريفير إلى مكتبه الشخصي حاملاً مجموعة من الأوراقِ بين يديه، عاوده الألم الحادّ في خاصرته اليمنى، ذلك الذي كانَ يعذّبه منذ أسابيع.

«لستُ على ما يرام...»

استند إلى الحائط لثانية:

«هذا سخيف.»

ثم وصل إلى كرسيّه.

أحسّ مرةً أخرى بأنّه مقيّد مثل أسدٍ هرِم، فاجتاحه حزن شديد.

«كلّ ذلك العمل كي أصل إلى هذه النتيجة! ها أنا في الخمسين. خمسون عاماً عشت خلالها حياةً مليئة، تكوّنتُ، وناضلت وغيّرت مجرى الأحداث، والآن، هذا هو ما يشغلني الآن ويملأ حياتي ويفوق العالم أهمية!...إنّه لأمر مثير للسخرية.»

انتظرَ، مسح قطرات عرقٍ عن جبينه، وحين زال الألم، بدأ عمله.

راجع المذكّرات بتروٍّ:

T

«اكتشفنا في بوينس آيرس، أثناء تفكيك المحرك 301... سنُنزل بالمسؤول عقوبةً كبيرة.»

وقّع.

«لم تراعِ محطّة فلوريانوبوليس التعليمات...»

وقّع.

«سننقلُ مدير المحطة ريتشارد نقلاً تأديبيّاً لأنّه...»

وقّع.

ولأنّ الألم في خاصرته، الذي تخدّر لكنّه بقي حاضراً فيه على نحوٍ مختلفٍ مثل معنىً جديد للحياة، أجبره على التفكير في نفسه، فقد أحسّ بالمرارة.

«هل أنا منصفٌ أم ظالم؟ لا أدري. حينَ ألجأ إلى الشدّة، تَقِلّ الأعطال. ليس الإنسان هو المسؤول، بل الأمر يشبه قوّةً غامضةً لن أصيبها أبداً إنْ لم أُصِبْ الجميع. ولو كنت منصفاً تمام الإنصاف، لكانت كلّ رحلة ليليّة مناسَبةً للموت.»

تملّكه شيء من الإحباط لأنّه اختطّ بقسوة بالغةٍ هذا الطريق. وفكّر بأنّ الشّفقة أمرٌ طيّب. كان لا يزال يقلّب المذكّرات، مستغرقاً في خياله.

«... أمّا بالنسبة لـروبليه، فإنّه منذ اليوم لن يعودَ واحداً من موظّفينا.»

وتذكّر ثانية ذاك الرّجل المسنّ وحواره معه في المساء السابق.

T

- لا بدّ من مثال يُضرب للآخرين.

- ولكنْ يا سيدي... لكنّها يا سيّدي مرة واحدة... واحدة فقط، فلتفكّر إذن! لقد عملتُ طول عمري!

- لا بدّ من مثال.

- لكن يا سيدي!... انظر يا سيدي!

حقيبةٌ بالية وصفحةٌ من جريدةٍ قديمة تظهر فيها صورة روبليه شابّاً، يقف بالقرب من طائرة.

كان ريفيير يحدّق بذيْنك اليدين الهرمتيْن ترتعشان فوق ذلك المجد الساذج.

- إنّها تعودُ إلى عام 1910، سيّدي... أنا من ركّب، هنا، أوّل طائرة في الأرجنتين! إنّني أعمل في مجال الطيران منذ عام 1910... يا سيّدي، لقد مرّت عشرون سنة! لذا، كيف يمكنك أن تقول... والشباب، يا سيّدي، كم سيضحكون في مشغل الطائرات!... آه! سيضحكون حقّاً!

- لا شأن لي بهذا.

- وأطفالي، يا سيّدي، لديّ أطفال!

- قلت لك إنّني أعرض عليك وظيفة عامل يدويّ.

- وكرامتي، يا سيدي، كرامتي! ألا ترى يا سيّدي، عشرون عاماً في مجال الطيران، عاملٌ ماهر قديم مثلي...

- عاملٌ يدويّ.

T

- أرفض ذلك يا سيدي، أرفض! كانت يداه الهرمتان ترتجفان، وريفير يشيح بنظره عن ذلك الجلد المتغّضن، والسّميك والجميل.

- عامل يدويّ.

- كلا يا سيدي، كلّا... أريدُ أنْ أقول لك أيضاً...

- بوسعك الانصراف.

فكر ريفير، «لم يكنْ هو من طردتُه بفظاظة، إنّما الأذى الذي ربّما لم يكن هو مسؤولاً عنه، لكنّه كان يمرّ من خلاله. وواصل التفكير، «ذلك لأنّنا نحن من يأمر الأحداث فتطيع، وبذلك نحن نخلق. والبشرُ أشياء بائسة، نحن من يخلقهم أيضا. أو أنّنا نقصيهم حين يمرّ الأذى من خلالهم.»

«سأقول لكَ أيضاً...» ما الذي أرادَ أنْ يضيفه الرجل المسكين! أنّنا ننتزع منه مُتعه القديمة؟ أنّه كان يحبّ صوت الأدوات فوق فولاذ الطائرات، وأنني أجرّد حياته من شاعريةٍ عظيمة، ثمّ... أنّه لا بدّ من العيش؟

«إنّني متعبٌ جدّا»، فكّر ريفير. كانت الحمّى تسري في جسده بلطف. ضرب خفيفاً على الورقة وفكّر: «لقد أحببتُ وجه الرّجل العجوز...» وتراءت يدا روبليه لريفير مرّة أخرى. كان يفكّر في تلك الحركة الواهنة التي كانت تصدر عنهما حين تتشابكان. كان يكفي أنْ يقول له: «لا بأس. لا بأس، فلْتبقَ.» شردَ ذهن ريفير حالماً ببريق الفرح الذي كانَ سيسري في اليدين الهرمتيْن. وبدا له

T

الفرح الذي كان سيعبّر عنه، لا ذلك الوجهُ، بل ذانك اليدان الهرمتان، يدا العامل، أجملَ شيءٍ في العالم. «هل أمزّق هذه المذكرة؟» وتخيّل عائلة الرجل العجوز، وعودته إلى بيته ليلاً، وكبرياءه المتواضعة تلك:

- إذن، هل أبقوك؟

- وماذا تظنّون! لقد كنتُ أنا من ركّب أول طائرة في الأرجنتين!

والشباب الذين لن يضحكوا بعد الآن، وهيبة صاحب الأقدمية المستردّةُ تلك... » أأمزّقها؟

«رنّ الهاتف، فرفع ريفير السّماعة.

وقت طويلٌ، ثمّ ذلك الصّدى، ذلك العمق الذي تضفيه الريح والفضاءُ على أصوات البشر. أخيرا تحدّث أحدهم:

- هنا المحطة الأرضية. مَن على الخطّ؟

- ريفير.

- سيّدي المدير، طائرة الرحلة رقم 650 على المدْرج.

- جيّد.

- الحقيقة، كل شيء جاهز، لكنْ كان علينا في اللحظات الأخيرة أنْ نعيد تركيب الدائرة الكهربائية، كان ثمّة خللٌ في التوصيلات.

- جيّد. من ركّب الدائرة؟

T

- ستتحقّق من الأمر. وإذا ارتأيتَ، سنتّخذ العقوبات اللازمة، فعطلٌ في الضوء على متن الطائرة قد يكون خطيراً!

- طبعاً.

فكّر ريفير: «إذا لم يستأصل المرء الداء حين يعثر عليه، وأينما كان، ستحدثُ انقطاعاتٌ في الضوء؛ وإنّها لجريمةٌ أن تخطئ الداء حين يكشف لك بالصدفة عن أداتِه: روبليه سيغادر.»

كان المعاون، الذي لم ير شيئاً من كلّ هذا يواصل الطّباعة.

- ما هذا؟

- حسابات منتصف الشهر.

- ولماذا هي ليست جاهزة حتّى الآن؟

- أنا...

- سنرى ذلك.

«غريبٌ كيف تفرضُ الأحداث سطوتها، كيف تَتجلّى قوّةٌ غامضة جبّارة، القوّةُ نفسها التي تقتلعُ الغابات البكر، وتتعاظم وتشتدّ، وتحاصر كلَّ صنيعٍ عظيم. كان ريفير يفكّر في تلك المعابد التي تهدمها نباتات متسلّقةٌ صغيرة.

«صنيعٌ عظيم...»

فكّر مرة أخرى ليُطمئنَ نفسه: «أُحبّ هؤلاء الرجال جميعهم، لكنهم ليسوا هم من أحارب. بل ما يمرُّ من خلالهم...» كان قلبه يخفقُ بضربات سريعة مؤلمة.

«لا أدري إن كنتُ قد أحسنتُ صنعاً. لا أعرف قيمةَ حياة البشر الحقيقيّةَ ولا قيمة العدالة ولا الحزن. لا أعرف بالضبط ما يساويه فرحُ إنسان ما. ولا اليد التي ترتجف. ولا الشفقة ولا اللِّين...» وشرد ذهنه:

«تُناقض الحياة نفسها كثيراً، والمرء يتدبّر أمره مع الحياة قدر ما يستطيع... ولكن أنْ يدوم، وأن يبدعَ، ويبدلَ جسده الفاني...»

فكرّ ريفير، ثمَ دقّ الجرس.

– اتّصلوا بطيّار بريد أوروبا. فليأتِ لرؤيتي قبل أنْ يقلع.

خطر له:

«عليّ أن أضمن أن لا تُضطّر هذه الطائرة للاستدارة عائدةً بلا داعٍ. إنْ لم أستنهض همّة رجالي، فسيسبّب الليل لهم المتاعب دوماً.

T

T

10

نظرت زوجة الطيّار، وقد أيقظها الهاتف، إلى زوجها وفكّرت:

- سأدعُه ينام مدّة أطول قليلاً.

كانت تتأمّل بإعجاب صدرَه العاري، في انسيابيّته التي ذكّرتها بسفينةٍ جميلة.

كان يستريحُ في ذلك السرير الهادئ، كما في ميناء، ولكي لا يقلق نومه شيء، كانت تمحو بإصبعها طيّةً هنا، ظلّاً أو موجة هناك، فتغمرُ السّرير بالسكون، كما تهدّئ يدٌ إلهيّة البحر.

نهضَت، فتَحت النافذة، واستقبَلت الرّيح بوجهها. كانت الغرفة تطلُّ على بوينس آيرس. كانت تنبعث من بيتٍ مجاورٍ، حيث ثمّة من يرقص، بعض ألحانٍ حملتها الريح. كانت تلك ساعة الملذّات والراحة. المدينةُ تحشر البشرَ بين قلاعها المئة ألف؛ حيث كلُّ شيء هادئ وآمن؛ ولكن بدا للمرأة أنّ صرخةً على وشك أنْ تُطلق: «إلى السّلاح! وأنّ رجلاً واحداً، هو زوجها، سيهبُّ استعداداً. كان يواصل راحته، لكنّها راحةٌ مثيرة للتوجّس كراحةِ جنود الاحتياط الذين لن يتأخّر استنفارهم. لم تكنْ تلك المدينة النائمةُ تحميه؛ ولسوف تبدو له أضواؤها بلا جدوى، حينَ يرتفعُ، إلهاً فتيّاً، فوق ذرّاتها. كانت تتأمّل

T

الذراعيْن القويّتين اللتيْن ستحملان، في غضون ساعة، مصير طائرةِ أوروبّا، مسؤولتين بذلك عن شيء عظيم، يضاهي مصير مدينة. أحسّت بالاضطراب. فقد أُعدّ هذا الرجل، وحده من بين ملايين البشر، لهذه التضحية الغريبة. أحزنها ذلك، فتلك المسؤولية تسرقه أيضاً من حبّها. لقد أعدّت له الطعام وسهرت تحرسه وتلاطفه، ليس من أجلها، بل من أجل اللّيل الذي سيأخذه، من أجل الكفاح والقلق والانتصارات التي لن تعرف عنها شيئاً. هاتان اليدان الحانيتان روّضتهما المحبّة، لكنّ مهمّاتهما الحقيقيّة ظلتّ غامضة، كانت تعرف ابتسامات الرجل، عنايته عاشقاً، لكنّها لم تكن تعرفُ أبداً غضباته المقدّسة في قلب العاصفة. ربّما كانت تُثقله بقيود ناعمةٍ من الحنان؛ من الموسيقى والحبّ والأزهار، ولكنْ عند كلّ رحيلٍ، كانت تلك القيود تسقطُ من دون أن يبدو أنّ ذلك يؤلمه.

فتح عينيه.

– كم الساعة؟

– منتصفَ الليل.

– وحالةُ الطّقس؟

– لا أعرف...

نهض. سار ببطء إلى النافذة وهو يتمطّى.

– لن أبرد كثيراً. ما هو اتّجاه الريح؟

– كيف لي أن أعرف...

انحنى:

T

- جنوبيّ. جيّد جداً. ستستمرّ كذلك حتّى البرازيل على الأقل.

لمح القمر، فشعر أنّه محظوظ. ثم هبط ببصره نحو المدينة، لم تبد له وادعة ولا متوهجّة، ولا دافئة، إذ كان يرى سلفاً غبار أضواءها العبثيّ يتدفّق.

- بماذا تفكّر؟

كان يفكّر بالضباب المحتمل من جهة بورتو أليغري.

- لديّ خطّتي. أعرف من أي جهة سألتفّ.

ظلّ مُنحنياً، يتنفّس بعمقٍ كما لو كان يتأهبّ للنزول عارياً في النهر.

- لستَ حزيناً حتّى... كم يوماً ستغيب؟

ثمانية أيّام، عشرة. لم يكن يعرف. حزين، كلّا، ولِمَ؟ لقد بدا له أنّه يذهب، حرّاً، لِيغزوَ تلك السّهول والجبال والمدن... وكان يُخيّلُ إليه أنّه في أقلّ من ساعةٍ سيمتلك بوينس آيرس ثمّ ينبذها.

ابتسم:

- هذه المدينة... سرعان ما سأنأى عنها. جميلٌ أنْ يسافرَ المرء ليلاً: نسحبُ مقبضَ الوقود، باتّجاه الجنوب، وبعد عشر ثوانٍ نعكس المشهد، فإذا بنا نتجّه شمالاً، ولا تعود المدينةُ سوى قاع بحرٍ.

أمّا هي، فكانت تفكّر في كلّ ما يتخلّى المرء عنه من أجل الفتوحات.

- ألا تحبّ بيْتك؟

- أُحبّ بيْتي...

لكنّ زوجتَه كانت تعلم سلفاً أنّ رحلته قد انطلقت، وتكادُ ترى مسبقاً كتفيه العريضتين تناطحان السّماء.

أشارت إليها.

- طقسٌ جميل ينتظرك ودربك مرصوف بالنجوم.

ضحك:

- نعم.

وضعت يدها على كتفه، فاضطربت مشاعرُها، إذ أحسّتها فاترة: أهذا الجسدُ مهدّدٌ إذن؟...

- أنت قوي جدّاً، ولكن كن حذراً!

- حذِر، بالطبع... وضحك مرة أخرى.

كان يرتدي ملابسه، فيختار من أجل تلك الحفلة أمتن الأقمشةِ وأثقلَ الجلود، كما لو كان فلّاحا. وكلّما زاد ثقلاً زاد إعجابها. وكانت هي من يبكّل حزامه ويشدّ حذاءه طويل الساق.

- هذا الحذاء يزعجني.

- هاك الآخر.

- ابحثي لي عن حبلٍ لمصباح الطوارئ.

T

كانت تتأمّله، وهي تصلح بنفسها آخرَ خلل في الدّرع. كان كلّ شيء محكماً.

- أنت وسيمٌ جدّاً.

لاحظته وهو يسرّح شعره بعناية.

- هل كلّ هذا من أجل النجوم؟

- هذا كي لا أشعر بأنّي شِخْتُ.

- أشعر بالغيرة...

ضحك مرة أخرى وقبّلها، وضمّها إلى ثيابه الثقيلة. ثم رفعها بذراعين ممدودتين كما يرفعُ المرءُ بنتاً صغيرة، وطرحها على السّرير مواصلاً الضحك:

- نامي!

أغلق الباب خلفه، وخطا في الشارع، وسط حشد الناس الليليّين المجهولين، أولى خطواته نحو الفتح. ظلّت هناك. ظلّت تتأمّلُ حزينةً تلك الأزهار، وتلك الكتب، وذلك الحنان الذي لم يكن بالنسبةِ إليه سوى قاع بحرٍ.

T

11

يستقبله ريفيير:

- كنت تمزح معي في رحلتك الأخيرة، حين قفلتَ راجعاً مع أنّ الأحوال الجويّة كانت جيّدة، وكان بإمكانك أن تعبر وتواصل. هل خِفْت؟

يصمت الطيّارُ متفاجئاً. يفرك ببطء راحةً بأخرى. ثم يرفعَ رأسه، وينظر مباشرة إلى ريفيير:

- نعم.

يشعر ريفيير، في أعماق نفسه، بالشفقة على هذا الفتى الشجاع جدّا، الذي انتابه الخوف. يحاول الطيّار الاعتذار.

- لم أكن أرى شيئاً. بالطبع، أبْعد... ربّما... اللاسلكيّ كان يقول... لكنّ ضوء المصباح الداخلي بات ضعيفاً، ولم أعد أرى يديّ. أردتُ أن أشعل ضوء الملاحة الخارجيّ لأرى الجناح على الأقل، لكنّي لم أر شيئاً. كنت أشعر أنّني في قاع حفرة كبيرةٍ يصعب تسلّقها. وبدأ محرّكي يرتجّ...

- لا.

- لا؟

T

- لا، لقد فحصناه بعد الواقعة. إنّه في حالة مثالية، لكنْ حينَ يكون المرء خائفاً يظنُّ المحرّك يرتجّ.

- ومن لا يخاف في ظروفٍ كتلك! كانت الجبال تعلوني، وحينَ أردت الارتفاع، واجهتُ تيّارات قويّة. أنت تعرف حين لا يرى المرء شيئاً... والتيّارات... وبدلاً من الصّعود، خسرت مائة متر. لم أتمكّن حتى من رؤية الجيروسكوب، ولا حتّى عدّادات ضغط السوائل والغازات. بدا لي أنّ محرّكي ينهار، وأنه كان يسخن، وضغط الزيت يتناقص... كلّ هذا في العتمة، مثل مرض. وكم كانت فرحتي كبيرة حين رأيتُ ثانية مدينةً مضاءة.

- إنّك مفرط في الخيال. فلْتذهب.

ويخرج الطّيار.

يغوص ريفيير في كرسيّه ويمرّر يده في شعره الرماديّ.

«إنّه أشجع رجالي. وما نجح في فعله تلك الليلة رائعٌ جداً، لكنّي أنقذه من الخوف...».

ثمّ، حين عاوده إغراء الاستسلام للضّعف:

«لكي تكون محبوباً، يكفي أنْ تُشفق. وأنا لا أشفقُ أو أنّني أخفي شفقتي. وددت لو أحيط نفسي بمودّة البشر ورقّتهم. فالطبيب يلقاها في مهنته، أمّا أنا، فإنّني أخدم الأحداث. وعليّ أنْ أصنع الرّجال كي يخدموها. كَم أشعر به جيّداً ذلك القانون الغامض، مساءً، في مكتبي، أمام خرائط الطرق! إذا سمحتُ لنفسي بالتراخي، إذا ما تركت الأحداث تأخذ مجراها وفقا للروتين

المحكم، تقع دائماً الحوادث الغامضة.وكأنّ إرادتي وحدها هي ما يمنع الطائرة من التحطّم في الجو، أو العاصفةَ من تأخير سير الرّحلة. وأحياناً تفاجئني قدرتي».

ويفكّر أيضاً:

«لعلّ الأمر واضح: هكذا هو كفاحُ البستانيِّ الدائمُ في أرضه الخضراء. فثِقَل يده فقط هو ما يدفع إلى التربة ثانيةً الغابةَ البدائيّة التي لا تتوقفّ الأرض أبداً عن إنباتها».

ويفكّر في الطيّار:

«إنّني أنقذه من الخوف. ليس هو من كنت أهاجم، بل من خلاله، تلك المقاومة التي تشلّ حركةَ البشر أمام المجهول. لو سمعتُ كلامه، لو أشفقت عليه، وأخذت مغامرتَه على محمل الجدّ، لظنّ أنّه عائدٌ من بلدٍ غامض، ووحده الغموض يخيفُ الإنسان. ينبغي أن ينزل البشرُ تلك البئر المُعتمة، ثمّ يخرجوا منها قائلين إنّهم لم يلتقوا شيئاً. على هذا الرّجل أنْ يهبطَ إلى أعمقِ أعماقِ اللّيل، في كثافته، حتّى من دون مصباح المناجمِ الصغير، ذاك الذي لا ينيرُ سوى اليديْن أو الجناح، لكنّه يزيح المجهول ولو لمسافة باعٍ واحد.»

ومع ذلك، وفي خضمّ هذا الكفاح، كان ريفيير وطيّاروه، في أعماق أنفسهم، يرتبطون في ما بينهم بأخوّةٍ صامتة. كانوا جميعاً في مركبٍ واحدٍ، تدفعهم شهوة الانتصار ذاتها. لكنّ ريفيير يتذكّر المعاركَ الأخرى التي خاضها كي يغزوَ الليل.

ففي الدوائر الرّسميّة، كانوا يخشون تلك المنطقةَ المظلمة كما يخشون غابةً مجهولة. وكان إطلاق طاقم جويّ، بسرعةِ مئتي

كيلومتر في الساعة نحو العواصف والضباب والعوائق المادّية التي يحويها الليلُ دون أن يظهرها، يبدو لهم مغامرةً يمكن تقبّلها من الطيران العسكري، حيث يغادر أحدهم الميدان في ليلةٍ صافية، لِيقصفَ، ثمّ يعودُ إلى الميدان ذاته. أمّا طيران الخدمة المنتظمة فمحكوم بالإخفاق ليلاً. غير أنّ ريفيير كان قد أجاب على ذلك بقوله: «إنّها بالنسبةِ إلينا مسألة حياة أو موت، فنحنُ نخسر كلَّ ليلة ما نحرزه من تفوقٍّ خلال النهار على السّكك الحديدية والسفن.»

وكان قد أصغى، بشيء من الضيق، للحديث عن الميزانيات العمومية والتأمين، وخصوصاً عن الرأي العام: «الرأي العام...»، كان يجيب: «نحن من يحكمه!» ويفكّر: «يا لها من مضيعةٍ للوقت! هناك شيء... شيء ما... شيءٌ ما يفوق هذا كلّه. فها هو حيٌّ يزحزح كل شيءٍ لكي يحيا، وهو يخلق في سعيه للحياة قوانينَه الخاصّة، وما من شيء يقوى على مقاومته.» لم يكن ريفيير يعرف متى سيباشر الطيران التجاري رحلات الطيران اللّيليّ أو كيف، ولكنْ كان لا بدّ من الإعداد لهذا الحلّ الحتميّ.

يتذكر البُسطَ الخضراء التي أصغى أمامها، إلى الكثير من الاعتراضات، مُسنداً ذقنه إلى راحته، يخالجه شعور غريب بالقوة. كانت تبدو له عبثيّة وتدحضها الحياةُ مسبقاً. كان يشعر بقوّته الذاتيّة تتجمع فيه مثل حِمْلٍ ثقيل: «حُججي راجحةٌ، ولسوف أفوز». إنّه مجرى الأحداث الطبيعي. وحين كانوا يطالبونه بحلولٍ مثالية، تستبعد كلّ المخاطر، كان يجيب: «التجربة هي ما يسفرُ عن القوانين، ومعرفة القوانين لا تسبق التجربة أبداً.»

بعد عام طويل من النضال، انتصر ريفير. فقال بعضُهم: «بسبب إيمانه»، وقال آخرون: «بسبب عناده وقوّته؛ قوة دبٍّ يتقدّم»، أمّا وفقاً له، وببساطة أكبر، فلأنّه كان يدفع في الاتّجاه السليم.

ولكنْ كم من الاحتياطاتِ في البداية! لم تكن الطائرات تغادرُ إلّا قبل ساعةٍ واحدة من طلوع الفجر، ولا تهبطُ إلّا بعدَ ساعةٍ من غروب الشمس. وحينَ صار أكثر اطمئناناً لتجربته، تجرّأ ودفع برحلاته الجويّةِ إلى أعماق الليل. ولم يكدْ أحدٌ يتّبع خطاه أو يعترفُ بجهده، لكنّه واصلَ معركته منفرداً.

اتّصلَ كي يعرفَ آخر أخبارِ الطائرات المحلّقة.

T

12

في تلك الأثناء، كانت طائرة باتاغونيا تقترب من العاصفة، وفابيان يتخلّى عن محاولة الالتفاف عليها. خمّن أنها واسعة النطاق، لأن خطّ البروق كانَ يغوصُ أكثر إلى داخل البلاد كاشفاً عن قلاعٍ من الغيوم. سيحاولَ المرورّ من تحته، وإن لم ينجح الأمر، سيحسم قراره ويستدير راجعاً.

قرأ مؤشّر الارتفاع: ألف وسبعمائة متر. ضغط براحتيْه على عصا القيادة ليبدأ بالانخفاض. اهتز المحرّكُ بقوّةٍ وارتجّت الطائرة. عدّل فابيان زاوية الهبوط، ثم تحقّق على الخريطة من ارتفاع التّلال: خمسمائة متر. وكي يحافظ على هامش معيّن، سيحلق على ارتفاع سبعمئة مترٍ.

ضحّى بارتفاعه كمن يقامر بثروة.

دفعت دوّامةٌ الطائرةَ فاهتزّت بشدّة. شعر فابيان بأن انهيالاتٍ لا مرئيّة تتهدّده. تخيّل أنه يستدير راجعاً، فيعثر على مئة ألف نجم، لكنه لم ينعطف ولو درجة واحدة.

أخذ فابيان يحسب فُرَصه: كانتْ عاصفةً محليّة على الأرجح، لأنّ تريلِو، محطةَ التوقّف التالية،كانت تعلن عن سماء ثلاثةُ أرباعها ملبّدة بالغيوم. إذن،عليه أن يتعايش لمدّةَ عشرين دقيقة لا أكثر مع هذا الأسمنت الأسود. ومع ذلك فقد كان يشعر بالقلق.

T

حاول، وهو يميل إلى اليسار في مواجهة كتلة الريح، أن يفسّر تلك الومضاتِ الغامضة، التي تظلّ تلمع حتّى في أحلك الليالي. لكنّها لم تعد ومضات، وإنّما بالكادّ تفاوتات في كثافةِ العتمةِ نفسها، أو تعبَ أصابَ عينيه.

بسط ورقة ناوله إياها مُشغّل اللاسلكي.

«أين نحن؟»

كان فابيان على استعدادٍ لتقديم الغالي والنّفيس مقابل أنْ يعرف الجواب. أجاب: «لا أعرف. إننّا نجتازُ عاصفةً مهتدين بالبوصلة.»

مال أكثر. كانت تضايقه شعلة العادم المثبّتة بالمحرّك مثل باقةٍ من نار، شاحبة جدّاً حتّى أنّ ضوء القمر كان لِيمحوَها، ولكنّها كانت، في قلب ذلك العدم، تلتهم العالم المرئي. نظر إليها. كانت الريح قد ضفرتها، كثيفةً كلهَب مِشعل.

كان فابيان يمدُّ رأسه في حجرة الطيّار كلّ ثلاثين ثانيةٍ لِيتفَحّص الجيروسكوب والبوصلة. لم يعد يجرؤ على إضاءة المصابيح الحمراء الضعيفة التي كانت تبهر بصره لفترة طويلة، لكنّ جميع الآلات ذات الطلاء المشّع بالراديوم كانت ترسلُ ضوءً نجمياً شاحباً. هنالك، وسطَ المؤشّرات والأعداد، أحسّ الطيار بأمانٍ خادعٍ؛ مثلما يحدثُ في قمرة السفينة حين يجتاحها الموج. كان الليلُ، وكلّ ما حَمل من صخور وحطام وتلال يتدفّقان نحو الطائرة بالقدْر ذاته من الحتمية المذهلة.

«أين نحن؟» كان مُشغّل اللاسلكيّ يكّرر السؤال.

T

فيظهر فابيان ثانيةً، ويستأنف، مائلاً إلى اليسار، مراقبته الجهنميّة. لم يعد يعرف كم من الوقت ومن الجهد يلزمه كي ينعتق من قيودِ العتمة؛ بل كاد يشكُّ في أنّه سينعتق منها يوماً، لأنه قد رهنَ حياته بتلك الورقة الصغيرة المتسّخة والمدعوكة، التي كان قد بسطها وقرأها ألف مرّة كي يغذّي أمله: «تريليو: ثلاثةُ أرباع السماء ملبّدة بالغيوم، رياح غربية ضعيفة».

لو كانت ثلاثة أرباع السماء في تريليو ملبّدة بالغيوم فعلاً، للُمحت أنوار المدينة على الأقلّ من بين شقوق الغيم. إلّا إذا...

دفعه الضوء الشاحب الموعود في البعيد إلى المواصلة؛ ومع ذلك، مدفوعاً بالشكّ، كتب إلى مشغّل اللاسلكيّ: «لا أعرف ما إذا كنت سأتمكّن من المرور. أخبرني إنْ كان الجوُّ جيّداً وراءنا.»

أذهلته الإجابة:

«كومودورو تبلّغ: العودة هنا مستحيلة. عاصفة.»

كان قد بدأ يشعر بالهجوم الغريب الذي أخذ ينعطف من سلسلة جبال الأنديز صوب البحر. قبل أن يتمكّن من بلوغها، سيكون الإعصار قد داهم المدن.

– استفسِر عن الطقس في سان انطونيو.

– أجابت محطّة سان انطونيو: هبوب رياح غربية وعواصف في الغرب. سماءٌ محجوبة بالكامل. سان انطونيو لا تكادُ تسمعنا بسبب التّشويش. وأنا أسمع بصعوبةٍ بالغةٍ أيضاً. أعتقد أنّ عليّ أنْ أسحب الهوائيّ تحسّباً للصواعق. هل ستقفلُ راجعاً؟ ما هي خطّتك؟

T

«دعك منّي الآن. واطلب معلوماتٍ عن الطقس في باهيا بلانكا.»

أجابت محطّة باهيا بلانكا: «نتوقع عاصفة عنيفة، غربًا فوق باهيا بلانكا، في غضون عشرين دقيقة.»

- استعلِم عن الطقس في تريليو.

- أجابت تريليو: إعصارٌ غرباً بسرعة ثلاثين متراً في الثانية، وزخات مطر.

- اتّصِل ببوينس آيرس وأخبرهم: نحن محاصران من كلّ الجهات، العاصفة تمتدّ على ألف كيلومتر، لم نعد نرى شيئاً. ماذا ينبغي أن نفعل؟

كانت تلك الليلة بالنسبةِ إلى الطيّار ليلةً بلا شطآن، لأنها لم تكن تفضي لا إلى ميناء جويٍّ (بدت جميعها عصيّة على الوصول)، ولا حتّى إلى الفجر؛ فالوقود سينفد في غضون ساعةٍ وأربعين دقيقة، ولأنّه سيكون مضطراً عاجلاً أم آجلاً لأنْ ينسابَ على غير هدى في تلك الأعماق الكثيفة.

لو أنّه استطاع أنْ يلحق بالفجر...

كان فابيان يفكّر بالفجر مثل شاطئ من الرمال الذهبيّة، حيث كان سيحطّ بعد تلك الليّلة العصيبة. كان ساحلٌ سهليّ سيولد أسفل تلك الطائرة المهدّدة، والأرض الهادئة كانت ستحتضنُ مزارعها النائمة وقطعانها وتلالها، والحطام كلّه الذي يتدحرجُ في العتمةِ سيغدو مسالماً. بأيّ فرح كان سيسبح صوب النهار، لو أنّه يستطيع!

فكّر أنه محاصر. وأنّ كلّ شيء سينتهي -بخير أو بشرّ- في تلك الأغوار المطبقة.

هذا صحيح، فقد بدا له أحياناً طلوعُ النهار مثل نقاهة بعد المرض.

ولكن ما جدوى أنْ تظلّ عيناه مثبّتتيْنِ على الشرق، حيث تحيا الشمس، مادامت تحول بينه وبينها غياهب ليل قد لا يخرج منها.

T

13

- رحلة بريد أسنسيون تسير على ما يرام. ستصلُ الطائرة السّاعة الثانية. لكنّنا نتوقع، بالمقابل، تأخيراً كبيراً لبريد باتاغونيا الذي يواجه صعوبات على ما يبدو.

- جيد، سيد ريفير.

- من المحتمل ألا ننتظر وصولها لنعطي إشارة الإقلاع لطائرة أوروبا. على أيّة حال، عندما تصل طائرة أسنسيون، اتّصلوا بنا لأخذ التعليمات. ابقوا جاهزين!

كان ريفير، في تلك اللّحظةِ، يعيد قراءة برقيات الطقس من محطّات التوقّف الشمالية. كانت طائرة أوروبا تسلكُ درباً مقمراً: «سماءٌ صافيةٌ مقمرة، لا رياح». وجبال البرازيل المرئيّة بوضوح تحت السماء المشعّة تغوص في البحر كأنّها تغسلُ شعرها المضفور من غاباتٍ سوداء في دوّاماته الفضيّة، تلك الغابات التي كان تنهمرُ عليها أشعّة القمر بلا كلل ومن دون أنْ تصبغها. سوداء أيضاً مثل حطام السفن في البحر كانت الجزرُ. وكان ذلك القمر الذي لا ينضبُ، على طول الطريق؛ نافورةَ ضوء.

إنْ أمر ريفير بالانطلاق، فسيدخل طاقم طائرةِ أوروبا عالماً مستقرّا يبثّ أنواره بهدوء طوال الليل؛ عالماً لا شيء فيه يهدّدُ توازن

T

كتلِ الظلال والنّور؛ بل لا تتسلّل إليه مداعبات الرياح النقيّة التي تغدو قادرة، إنْ هي بردت، على أن تفسدَ سماءً بأكملها في ساعة أو اثنتين.

لكنّ ريفير تردّد أمام ذلك الألق مثل مُنقِّبٍ أمامَ حقول ذهبٍ محرّمة. كانت الأحداث في الجنوب، تضعُ ريفير؛ المدافعَ الوحيد عن الرحلات الليلية، في موضعِ المخطئ. فمن شأن وقوع كارثة في باتاغونيا أن يجعل خصومَه في موقف أخلاقيّ بالغ القوة، ربّما يظلّ إيمان ريفير عاجزاً أمامه بعدها، لكنّ إيمانه لم يتزعزع، فوجود خللٍ في عمله سمح بحدوث المأساة يعني أنّ المأساةَ كشفت عن الخلل، لكنّها لم تكن لِتُبرهن على أيّ شيء آخر». «لعلّ هناكَ حاجةً إلى مراكز مراقبة في الغرب... سنرى ذلك.» وفكّر أيضاً: «ما زالت لديَّ الأسبابُ القويّة ذاتها التي تجعلني أصرّ على الاستمرار، كما نقصت الأسباب المحتملة لوقوع الحوادث واحداً، هو هذا الذي ظهر الليلة.» والإخفاقُ يزيدُ القوي قوّةً. إنّنا نلعبُ، للأسف، مع الرجال لعبةً قلّما يُعتدّ فيها بالمعنى الحقيقيّ للأشياء. إنّنا نفوز أو نخسر وفقاً لما هو ظاهر، نسجّل نقاطًا تافهة، ويجد الواحدُ منّا نفسه محكوماً بمظهر المهزوم.

دقّ ريفير الجرس.

- أما زالت برقيّات باهيا بلانكا لا تصلنا؟

- نعم،لا تصل.

- اطلبْ لي المحطةَ عبر الهاتف.

وبعد خمس دقائق، كان يسأل:

- لماذا لا تنقلون لنا أخباراً؟

- إنّنا لا نسمع الطائرة.

- ألا تُرسل شيئاً؟

- لا نعلم. ثمّة عواصف كثيرة. حتّى لو كانت ترسل، فلن نسمع.

- وهل يسمعونها في تريليو؟

- نحن لا نسمع تريليو.

- اتّصلوا بهم هاتفيّاً.

- لقد حاولنا، الخطّ مقطوع.

- ما حالةُ الطقس عندكم؟

- تنذر بالعاصفة. برقٌ في الغرب والجنوب. جوّ ثقيلٌ جدا.

- والرياح؟

- ضعيفة حتى الآن. لكنّ هذا سيدوم لعشر دقائق فقط. البروق تقترب بسرعة.

ثمّ حلّ الصمت.

- باهيا بلانكا؟ هل تسمعني؟ حسناً. اتّصِلوا بنا بعد عشر دقائق.

تصفّح ريفير برقيّات محطّات التوقّف الجنوبيّة. كانت كلّها تشير إلى صمتِ الطائرة ذاته. بعض المحطّات كانت قد كفّت عن

الردّ على نداءات بوينس آيرس، وعلى الخارطة، كانت رقعة المقاطعات الصامتة تتّسع، حيث كانت المدنُ الصغيرة تتعرّض بالفعل للإعصار، موصدة الأبواب، وقد انقطع كلّ بيت في شوارعها المعتمة عن العالم تائهاً في الليل مثل سفينة في بحر. ووحده الفجر قد ينقذها.

ومع ذلك، كان ريفيير لا يزالُ يأمل، وقد انحنى على الخارطة، في اكتشاف ملاذٍ من سماء صافية، لأنه كان قد استعلم عبرَ البرقيات من الشرطةِ على امتدادِ أكثر من ثلاثين مدينة في المقاطعات، وبدأت تصله الإجابات. أوعز إلى محطّات اللاسلكي على امتدادِ ألفي كيلومتر، في حال التقطت إحداها نداءً من الطائرةِ، بأنْ يُنقل الخبرُ في ثلاثين ثانية إلى بوينس آيرس، لِتُبلغه بموقع ذلك الملاذ،فينقلُه بدوره إلى فابيان.

كان المعاونون الذين استُدْعوا السّاعة الواحدة صباحاً قد وصلوا إلى مكاتبهم، حيث عرفوا، بصورة غامضة، أنّ رحلات الطيران اللّيليّة قد تُوقف، وأنّ طائرة أوروبا نفسها قد لا تقلع إلّا في النهار. كانوا يتهامسون حول فابيان، والإعصار، وخاصة حول ريفيير. كانوا يخمّنون أنه يقبعُ هنا، قريباً منهم، وقد سحقه شيئاً فشيئاً تكذيب الطبيعة له.

لكنّ تلك الأصوات انطفأت كلّها، حين ظهر ريفيير عند الباب، محشوراً في معطفه، وقبّعته تغطي عينيه كما دوماً، مسافراً أبديّاً. خطى خطوةً أخرى هادئةً تجاه رئيس المكتب:

– الساعة الآن الواحدة وعشر دقائق، هل أوراق طائرة أوروبا جاهزة؟

- أنا... ظننتُ...

- ليس عليك أنْ تظن، بل أنْ تنفّذ.

استدار ببطءٍ نحو نافذة مفتوحة، ويداه معقودتان خلف ظهره.

انضمّ إليه أحد المعاونين:

- سيّدي المدير، لن نحصل إلّا على القليل من الردود، فقد أُخطرنا أنّ العديد من خطوط التلغراف قد دُمّرت بالفعل في المناطق الداخلية...

- حسناً.

كان ريفير جامداً في مكانه، يحدّق في اللّيل.

هكذا، باتت كلّ رسالةٍ تحمل تهديداً للطائرة، وكلّ مدينة تشير، حين تتمكّنُ من الإجابة قبل تدمير الخطوط، إلى تقدّم الإعصار، كمن ينقلُ أخبارِ غزوٍ. «إنّه قادمٌ من الداخل من سلسلة الجبال، يكنسُ الطريق متقدّماً نحو البحر...»

رأى ريفير أنّ النجوم تتلألأ أكثر من المعتاد، والهواءَ مفرط الرطوبة. يا له من ليلٍ غريب! كان يتعفّن فجأةً في بعض المواضع، كلُبِّ فاكهةٍ لامعة. كانت النجوم ما تزال تسيطر بكامل سلطانها على بوينس آيرس: واحةً عابرةً، مرفأً أبعد من أن يبلغه طاقم الطائرة. ليلٌ منذِرٌ بالخطر، مسّته الريح المشؤومة فأفسدته. ليلٌ تصعبُ هزيمته.

في مكان ما، في أغواره، ثمة طائرة في خطر، وعلى متنها يضطرب رجلان، عاجزين.

T

T

14

اتّصلت زوجةُ فابيان.

كانت تحسب ليلةَ كلّ عودةٍ سيرَ طائرة باتاغونيا: «إنّه يُقلع من تريليو...» ثمّ تعودُ إلى النوم. وبعدها بقليل: «لا بدّ أنّه يدنو من سان أنطونيو، ولا بدّ أنه يرى أضواءها الآن...» ثم تنهضُ، تزيحُ الستائر، وتراقبُ السّماء: «كلّ هذه الغيوم تضايقه...» أحياناً كانت المرأة الشابّة ترى القمر يتمشّى مثل راعي أغنام، فتعود للنوم، مطمئنّة بفضل ذلك القمر وتلك النجوم؛ آلاف الحضور حول زوجها. وعند الساعة الواحدة تشعرُ به يقترب: «لم يعدْ بعيداً الآن، لا بدّ أنّه يرى بوينس آيرس...» ثم تنهضُ من جديد وتعدّ وجبة الطعام، والقهوة الساخنة: «الجوّ باردٌ جدّاً هنالك في الأعالي...» كانت تستقبله دوماً وكأنّه هابطٌ من قمّة ثلجيّة: «ألا تشعرُ بالبرد؟ -لا!- تدفّأ على كلّ حال...» نحو الواحدةِ والرّبع كان كلّ شيءٍ جاهزاً، فاتّصلت:

تلك الليلة، سألَت كما في كلّ الليالي:

– هل هبط فابيان؟

اضطرب المعاون الذي أجابها قليلاً:

- من المتحدّث؟

- سيمون فابيان.

- آه! دقيقة...

مرّر المعاون الذي لم يجرؤ على قول شيء السّماعةَ إلى رئيس المكتب.

- من هنا؟

- سيمون فابيان.

- آه!... تفضّلي يا سيدتي؟

- هل هبط زوجي؟

ساد صمتٌ بدا غير قابل للتفسير، ثم أجاب ببساطة:

- كلّا.

- هل هناك تأخير؟

- نعم...

صمتٌ جديد.

- نعم... تأخير.

- آه!...

كانتْ تلك آهة جسدٍ جريح. التأخير لا شيء... لا شيء... ولكن إلى متى سيمتدّ...

- آه!... وأيّة ساعة سيصل؟

T

- أية ساعة سيصل؟ نحن... نحن لا نعرف.

هاهي تصطدم بجدار. لم تكن تحصل إلّا على صدى أسئلتها.

- أرجوك، أجبني! أين هو؟...

- أين هو؟ انتظري...

آلمها هذا الجمود. شيءٌ ما كان يحدث خلف ذلك الجدار.

حسم المعاون أمره:

- لقد أقلع من كومودورو في السابعة والنصف مساءً.

- ومنذ ذلك الحين؟

- تأخرّ كثيراً؟... كثيراً جدّاً... بسبب سوء الأحوال الجويّة...

- آه! الجوّ السّيّئ...

أيّ ظلمٍ، أيّ خداعٍ في ذلك القمر المسترخي هناك، متبطّلاً، فوق بوينس آيرس! تذكّرت المرأة الشابة أنّ الرحلةَ تستغرقُ ساعتين من كومودورو إلى تريليو.

- أهو يحلّقُ منذ ستّ ساعات باتجاه تريليو! لكنّه يرسل لكم الرسائل! فماذا يقول فيها؟...

- ماذا يقول؟ بطبيعة الحال، في مثل هذا الطقس... أنت تفهمين ذلك جيّداً... لا يمكن سماعُ الرسائل.

- مثل هذا الطقس!

- حسناً يا سيدتي، سنتّصل بك حالما نعرف شيئًا.

– آه! أنتم لا تعرفون شيئاً...

– وداعاً يا سيّدتي...

– لا! لا! أريد التحدّث الى المدير!

– السيّد المدير مشغول جدّاً يا سيدتي، هو في اجتماع الآن...

– آه! لا شأن لي بهذا! حقاً لا شأن لي بهذا! أريد التحدّث إليه!

مسح مدير المكتب جبينه المتعرّق.

– دقيقة...

دفع بابَ ريفيير:

– إنّها مدام فابيان، تريد التحدّث إليك.

«هذا ما كنت أخشاه»، فكّر ريفيير. لقد بدأت عناصرُ المأساةِ العاطفيةُ بالظهور. خطر له أولًا أن يردّها؛ فالأمّهات والزوجات لا يدخلن غرف العمليّات. وعادةً ما تُكتم العاطفة على متْنِ السفن المعرّضة للخطر، فهي لا تساعد في إنقاذ البشر. مع ذلك فقد وافق على التحدّث إليها:

– حوّلها إلى مكتبي.

أصغى إلى ذلك الصوت البعيد الرّاجف، فعرف على الفور أنه لن يستطيع إجابتها. سيكون من غير المجدي أبداً أن يتواجَها.

– سيّدتي، أرجوك، اهدأي! كثيراً ما يحدث في مهنتنا أن ننتظر طويلاً وصول الأخبار.

T

لقد وصل إلى ذلك الحدّ الذي تُطرح فيه، لا مسألةُ محنةٍ صغيرة معيّنة، وإنّما مسألة الفعل البشريّ نفسه. فليست زوجة فابيان من يقفُ أمام ريفيير الآن، بل معنىً آخر للحياة. لم يستطع ريفيير إلّا أنْ يُصغيَ إلى ذلك الصوت وأن يشفق عليه؛ ذلك النشيد الحزين جدّاً، والعدوّ مع ذلك، فالفعل والسعادةَ الفرديّة لا يقبلان الشراكة؛ بل هما في صراع دائم. كانت تلك المرأة هي أيضاً تتكلّم باسم عالَمٍ مطلقٍ وواجباته وحقوقه: عالم مصباحٍ مضاءٍ فوق مائدة المساء، وجسدٍ يطلبُ جسدها، ووطنٍ من الآمال، والحبّ، والذكريات. كانت تطالبُ بممتلكاتها، وهي على حقّ. وريفيير هو الآخر كان على حقّ، ولكنّ لم يكن لديه ما يعارض به حقيقة تلك المرأة. كان بصدد اكتشاف حقيقته الخاصة، في ضوء مصباحٍ بيتيّ متواضع، حقيقةٍ عصيّةٍ على التعبير، ولا إنسانيّة.

– سيّدتي...

لم تعدْ تسمع، وبدا له أنّها انهارت عند قدميه تقريباً، بعد أنْ تراخت قبضتاها الضعيفتان على الجدار.

ذات يومٍ قال مهندسٌ لريفيير بينما كانا ينحنيان على رجلٍ مصاب بالقرب من جسرٍ كان قيد الإنشاء: «هل يستحق هذا الجسر أنْ يُهشّمَ وجهٌ كهذا من أجله؟ ما كانَ أحدٌ من الفلّاحينَ الذين شُقّ من أجلهم هذا الطريق لِيقبلَ أنْ يُشوّه هذا الوجه على هذا النحو المرعب، فقط ليتجنّب مشقّة الالتفاف عبر الجسر التالي. ومع ذلك، تُشيّد الجسور. وأضاف المهندس: «إنّ المصلحة العامة تتشكّل من مجموع المصالح الخاصة، وهي لا تسوّغ ما هو أكثر من ذلك–

T

«ولكن، أجابه ريفيير لاحقاً، إذا كانت حياة الإنسان لا تُقدّر بثمن، فإنّنا نتصرّف دوماً كما لو أن ثمّة شيئًا ما يتجاوز في قيمته الحياة الإنسانيّة، ولكن ما هو هذا الشيء؟».

حين فكّر ريفيير في طاقم الطائرة، انقبض قلبه. إنّ الفعل، حتّى حين يتعلّق الأمر ببناء جسر، يحطّم سعادةَ بعض البشر؛ ولم يعد يستطيع منع نفسه من التساؤل «باسم ماذا؟»

وخطر له: «كان يمكن لهؤلاء الرّجال الذين قد يختفون من الوجود أن يحيوا بسعادة». كان يرى وجوهًا تنحني في معبد ذهبيّ، تحت مصابيح المساء. «باسم ماذا انتزعْتُهم من هناك؟» باسم ماذا اقتلَعَهم بعيداً عن سعادتهم الفرديّة؟ أليس القانون الأول هو حماية تلك الهناءات؟ لكنْ ها هو نفسه يحطّمها. غير أنّ المعابد الذهبيّة محكومة حتماً بالتلاشي ذات يوم كالسّراب. فالشيخوخة والموت سيدمّرانها، وهما يفوقانه في انعدام الرحمة. ولعلّ ثمّة شيئاً آخر أدومَ يستحقُّ الإنقاذ؛ ربّما كان هذا الجزء من الإنسانِ هو ما يعمل ريفيير على إنقاذه؟ وإلاّ فما من مسوّغٍ للفعل.

«أن تحبّ، وتحبّ فقط، يا له من طريقٍ مسدود! انتاب ريفيير شعورٌ غامض بواجبٍ أعظم من الحبّ. أو أنّه شعورٌ بالحنان أيضاً، لكنّه مختلف جدًا عن مشاعر الحنان الأخرى. تذكّر عبارة تقول: «يتعلّقُ الأمر بجعلهم خالدين...» أين قرأ ذلك؟ «ما تلاحقه في ذاتك يموت.» تراءى له مشهد معبد إله الشّمس لدى شعب الأنكا القديم في البيرو. تلك الحجارة المنتصبةُ فوق الجبل، ماذا سيتبقّى غيرها من حضارة قوية، تضغطُ بثقلِ حجارتها على إنسانِ اليوم،

مثل شعورٍ بالذّنْب؟ «باسم أيّ قسوةٍ، أو حبٍّ غريبٍ، كانَ قائدُ الشعوب الغابرة، حين يجبرُ الجموعَ على أنْ تجرّ حجارة ذلك المعبد إلى أعلى الجبل، يفرض عليها تشييد أبديّتها؟» استعادَ ريفيرُ أيضاً صورةَ الحشودِ في المدن الصغيرة، وهي تدور في الليل حول منصّات الفرقة الموسيقية. «ذلك النوّع من السعادة، وتلك الأغلال...»، فكّر.إن لم يكن قائد الشعوب القديمة قد رثى لمعاناةِ الإنسانِ، فإنّه قد أشفق عظيم الشفقة لموْتِهِ؛ ليس لموته الفرديّ، بل لموت بني جنسه الذين سيمحوهم بحرُ الرّمال، فقاد شعبه لكيْ يشيّد،على الأقلّ، نصباً من حجارة لن تدفنها رمالُ الصحراء.

T

15

تلك الورقة المطوية أربع طيّاتٍ قد تنقذ فابيان. فتحها، وهو يكزّ على أسنانه.

«لا أستطيع الاتّصال ببوينس آيرس. ولا أقوى حتّى على الإمساكِ بمفاتيح التحكّم، أحسّ بشراراتٍ تندلع في أصابعي.»

أراد فابيان أنْ يجيب، وقد تملّكه الغضب، لكنْ حينَ أفلتت يداه عصا القيادة لكي يكتب، اخترق جسمَه شيءٌ أشبه بموجة قويّة؛ كانت الدّوّاماتُ ترفعه في خمسة أطنان المعدن التي تحمله إلى أعلى وتؤرجحه، فعَدل عن ذلك.

مرة أخرى، انغلقت يداه على الموجة القويّة، فروّضتاها.

تنفّس فابيان بقوّة. إنْ سحب مُشغّل اللاسلكيّ الهوائيّ خوفاً من العاصفة، فسيحطّم فابيان وجهه عند الوصول.كان لا بدّ، ومهما كلّف الأمر، أنْ يتّصلا ببوينس آيِرس، وكأنّه كان بوسع أحد أن يرمي لهما، من على بعد أكثر من ألف وخمسمئة كيلومتر، بحبلِ نجاة من تلك الهاوية.

وفي غياب أيّة ارتعاشة نورٍ -أو حتّى ضوء مصباح حانةٍ لا نفع منه سوى أنّه وُجدَ ليدلّه على الأرضَ مثل منارةٍ- كان يحتاج إلى

صوْت، صوتٍ واحد على الأقل، قادمٍ من عالمٍ لم يعد موجوداً. رفع الطيأر قبضته ولوّح بها في ضوء حجرته الأحمر، ليُفهِم الشخص الآخر في الخلف هذه الحقيقة المأساوية، لكن الآخر كان مستغرقاً في مراقبة الفضاء المدمّر، والمدن المدفونة، والأضواء الميّتة، فلم يفهمها.

كان فابيان سيعمل بأيّة نصيحةٍ يصرخون بها له. فكّر: «حتّى لو طلبوا منّي أنْ أدورَ حول نفسي، أو أنْ استمرّ في السيّر قُدماً إلى الجنوب...» لا بدّ أنّ أراضي السلام تلك موجودةٌ في مكانٍ ما، هانئةً تحت ظلال القمر العظيمة.أولئك الرفاق هناك يعرفون مكانها، العارفين مثل العلماء، المنكبّين على الخرائط، كليِّي القدرة، الآمنينَ وسطَ مصابيحهم الجميلة كالزّهور. ما الذي يعرفه هو خارجَ التيارات الهوائية والليل الذي كانَ يطبق عليه بسيْله الأسود، بسرعةِ انهيارِ صخري؟ لا يمكنهم أنْ يتركوا رجُلين وسط تلك الأعاصير وألسنة اللهب، هناك في الغيوم. لا يمكنهم ذلك. ولو أصدروا الأمر لفابيان: «اضبط اتجاهك على مائتيْنِ وأربعين درجة...» لكان ضبَطه على مائتين وأربعين. لكنّه كان وحيداً.

بدا له أنَ المادّة نفسها تتمرّد هي الأخرى. كان المحرّك يهتزّ عند كلّ غوصٍ، يهتزّ بقوة حتّى أن كتلة الطائرة بأكملها كانت ترتجّ كأنّها من الغضب. كان فابيان يستهلك قوتّه للسيطرة على الطائرة، دافناً رأسه في الحجرة، في مواجهة أفق الجيروسكوب، ففي الخارج، لم يكن يستطيع تمييز كتلة السماء من كتلة الأرض، حيثُ كانَ تائهاً في عتمةٍ اختلط فيها كلّ شيء، كما في بداية الأكوان. لكنّ مؤشرات قياس الطيران كانت تتذبذب أسرعَ فأسرع، ما جعل من الصعب تتبّعها. كان الطيّار الذي خدعته المؤشّرات يقاوم بصعوبة، يفقدُ

ارتفاعه، ويغرق شيئاً فشيئاً في تلك العتمة. قرأ ارتفاعه: «خمسمائة متر». كان ذلك مستوى التلال. أحسّ بأنّها تدفع نحوه أمواجها المدوِّخة، وبدا له أيضاً أن كلّ تلك الكتل الأرضيّة، التي كان من شأنِ أخفّها وزناً أنْ يسحَقه، كأنّها قد اقتُلعت من أصولها فتدفّقت وشرعت تدور حوله ثَمِلةً. كانت رقصةً عميقة قد ابتدأت حوله وأخذت تشدّه إليها أكثر فأكثر. حسم أمره: سيهبط أينما كان، حتّى لو أدىّ ذلك إلى ارتطامه بالأرض، ولكي يتفادى التلال على الأقلّ، أطلق قذيفة التنوير الوحيدة التي كانت بحوزته. اشتعلت القذيفة وحوّمت حول نفسها مضيئةً سهلاً كاملاً من حولها، ثمّ انطفأت؛ كان ذلك السّهل هو البحر.

فكّر سريعاً: «لقد ضعت. انحرفتُ أربعين درجةً، وانجرفتُ على أيّة حال. إنّه إعصار. أين اليابسة؟ كان ينعطف غرباً. وفكّر: «الآن من دون قذيفة تنوير، إنّني أقتل نفسي». كان لا بدّ أن يحدثُ ذلك ذات يوم. ورفيقه، هناك، في الخلف... «لا بدّ أنّه سحب الهوائي بالتأكيد». لكنّ الطيار لم يعدْ حانقاً عليه. فهو نفسه، لو فتح يديه فقط، لانسابت حياتهما منهما مثل حفنة من غبار. فقد كانَ يحملُ بين يديه قلبَ رفيقه النابضَ وقلبَه هو. فجأةً أرعبته يداه.

كان قد تشبّث بكلّ ما أوتي من قوّة بالمقود، وسط تلك التيارات العنيفة التي كانت تضرب الطائرة ضرباتٍ كنطحات الكبْش،، وظلّ متشبّثاً به، لكي يكبح اهتزازاته التي من شأنها أن تؤدي إلى قطع كابلات التحكّم. وها هو لم يعد يشعر بيديه المخدّرتيْنِ من التّعب. أراد تحريك أصابعه لتلقّي إشارة منها، لكنّه لم يدر إنْ كانت قد طاوعته. أحسّ بأنّ ذراعيه ينتهيانِ بشيء غريب

عنه؛ بقطعتيْن رخوتين من مطاطٍ لا إحساس فيهما. فكّر: «يجدر بي أنْ أتخيّلَ بقوة أنني أشدّ على...» لم يعرف إنْ كانَ فكره يصلُ إلى يديه. ولأنّه لم يعدْ يحسُّ بهزّات المِقود إلّا من خلال الآلام في كتفيه، فقد خطر له: «سيفلتُ منّي،يداي تنفتحان...» لكنّه خاف لأنّه تلفّظ بهكذا كلمات، فقد خُيّل إليه أنّه شعَر بيديه، هذه المرة، تستجيبان لسلطان الصّورة الغامض، وتنفتحان ببطءٍ في العتمةِ، لِتُسلمانِه لمصيره.

كان بوسعه أنْ يستمرّ في الصراع، وأن يجرّب حظّه، فما من حتميّةٍ تُفرضُ علينا من الخارج، بل ثمّة حتميّة داخليّة، حين تأتي لحظةٌ تكتشف فيها أنّك لست مُحصّناً ضدّ الخطر؛ فتجرّك الأخطاءُ مثل دُوار.

في تلك اللحظة ذاتها، التمعت فوق رأسه، من أحد شقوق العاصفة، بِضع نجمات، مثل طُعْم قاتلٍ في قلب مَصْيَدة. كان يرى جيّداً أنّه وقع في مصْيَدة، حيث يلمح المرءُ في حفرةٍ ثلاث نجماتٍ، يصعد نحوها، ثمّ لا يتمكّن من النزول، فيظلّ هناك يعضُّ النجوم...

لكنّ جوعه للنّور كان من الضراوة بحيث أنّه صعَد.

16

صعد، وقد تحسّنت قدرته على التعامل مع التيارات الهوائية بفضل العلامات التي كانت تشكّلها النجوم. كان مغناطيسها الشاحب يجذبه. ولأنّه قاسى طويلاً سعياً وراء الضوء، فإنّه ما كان ليترك أدنى وميض يفوته. ولو أتيح له وميض مصباحِ نزلٍ بسيط، لظلّ يدور حتّى الموت حول تلك العلامة التي كان يتعطّش لها. وها هو ذا يصعد الآن نحو حقولٍ من الضوء.

كان يرتفع شيئاً فشيئاً، في حركةٍ حلزونيّةٍ داخل البئر التي انفتحت له ثمّ عادت وانغلقت أسفل منه. وكلّما صعدَ كانت الغيومُ تفقدُ شيئاً من وحل عتمتها حتّى صارت تمرُّ من فوقه،مثل أمواجٍ تزداد بياضاً وصفاءً. هكذا خرجَ فابيان من الحفرة.

كانت دهشته لا تحدّ، فقد كان الضوء من قوة السطوع بحيث خطف بصره،فاضطرّ لأن يُغمضَ عينيه لثوانٍ. لم يخطرْ في باله يوماً أنّ الغيوم في الليل يمكن أن تُبهر. والحقيقةُ أنّ القمر المكتمل وكوكبات النجوم كانت تحوّل الغيومِ إلى أمواج مُشعّة.

وماإنْ خرجتْ الطائرة من تلك البئر، حتّى خيّم عليها هدوءٌ بدا استثنائياً. لم يكن هنالك أيّ موجةٍ تدفعها، بل كانت مثل قارب يعبرُ سدّاً ويدخلُ المياهَ الآمنة. لقد عَلقت في قطعة سماوية مجهولةٍ

وخفيّة مثل خليج الجزر السعيدة[1]. كانت العاصفةُ من تحته تشكّلُ عالماً آخر يبلغ سُمْكه ثلاثة آلاف متر، وتذرعه الرياح العاصفة والأعاصير المائية والبروق، لكنّها كانت تدير نحو النجومِ وجهاً من البلّور والثلج.

كان يخيّلُ لفابيان أنّه قد دخلَ «أرض يمبوس» غريبة، لأنّ كلّ شيء صار مضيئاً، يداه وملابسه وجناحا طائرته، ولأن النّور لم يكن يهبط من النجوم، بل يتدفّقُ من تحته ومن حوله، من تلك التكتّلات البيضاء.

وكانت تلك الغيوم، أسفله، تعكسُ كلّ الثلج الذي تتلقّاه من القمر، وكذلك الغيوم عن يمينه وعن شماله، شاهقةً كالأبراج. كان يسيلُ حليبٌ من نور، يسبح فيه طاقم الطائرة. حين استدار فابيان، رأى مُشغّل اللاسلكيّ يبتسم.

- تحسّنت الأمور! صاحَ.

لكنّ الصوت ضاع في الضجيج، ووحدها الابتسامات كانت تتواصل فيما بينها. «إنني مجنون حقّاً، خطر لفابيان، أبتسمُ بينما نحن ضائعان».

لكنّ ألف ذراع معتمة كانت بالفعل قد أفلتَته. لقد فُكّت قيوده، كما تُفكُّ قيودُ سجينٍ يُترك ليمشي وحيداً، لِبرهةٍ، بين الزهور.

---

(1) مكان أسطوري يقع على حدود العالم، وهو أشبه بالجنّة، حسب الأساطير اليونانية. (المترجم)

T

«جميلٌ للغاية»، فكّر فابيان وهو يتجوّلُ بين النجوم المكدّسة مثل كنز ثقيل، في عالمٍ لم يكن فيه أيُّ شيء آخر على قيد الحياة، لا شيء على الإطلاق، غير فابيان ورفيقه. كانا مثل لصوص المدن العجيبة، المسجونين في غرفةٍ مليئةٍ بالكنوز، لا يمكنهم الخروج منها. كانا يتجوّلان بين جواهر جليدية، غنيّين بلا حدودٍ، لكنّهما محكومان.

T

17

صدرَت عن أحد مشغّلي اللاسلكي في كومودور ريفادافيا؛ محطّةِ التوقّف في باتاغونيا، حركةٌ مفاجئة، فتجمّع حوله كل من كانوا يسهرون في المحطة للمراقبة، عاجزين، و مالوا عليه.

كانوا ينحنون فوق ورقةٍ فارغة، مضاءةٍ بصعوبة. كانت يد المشغّل لا تزال متردّدة، والقلم يهتزّ، والحروف لا تزالُ حبيسة يده، لكنّ أصابعه بدأت ترتجف.

- عواصف؟

أومأ مشغّل اللاسلكي برأسه موافقاً. كان لا يكاد يفهم ما يقال بسبب الأزيز.

ثم خطّ بعض الإشارات التي يتعذّر فكّ رموزها، ثّم بعض الكلمات، ثم تمكّن أخيراً من بناء النّص:

«محاصران على بعد ثلاثة آلافٍ وثمانية أمتار من العاصفة. نمضي غرباً نحو الداخل، لأنّنا كنّا قد جُرفنا نحو البحر. كلّ شيء من تحتنا مسدود. لا نعرف إنْ كنّا ما نزالُ نطير فوق البحر، أخبِرونا إذا امتدّت العاصفة إلى الدّاخل.»

لقد احتاج الأمر، بسبب العواصفِ، من أجل إيصال هذه البرقية إلى بوينس آيرس إلى أنْ تُنقلَ في سلسلة من محطّةٍ إلى محطّة. كانت الرّسالةُ تتقدّم في الليل، مثل نار تُضرم من برج إلى برج.

T

أجابت بوينس آيرس:

- عاصفةٌ شاملةٌ في الداخل. كم تبقّى لديك من الوقود؟

- ما يكفي لنصف ساعة طيران.

انتقلت هذه الجملة، من راصدٍ إلى راصد، حتّى بلغت بوينس آيرِس.

كانت الطائرة محكومةً بأن تقتحم، قبل انتهاء الدقائق الثلاثين، إعصاراً قد يجرفها إلى الأرض.

T

18

ريفيير يفكّر. لم يعد لديه أمل: سوف يغرق ذلك الطاقم في مكانٍ ما من الليل.

تذكّر مشهداً كان قد أثّر في طفولته: كانوا يفرغون بركة من الماء بحثاً عن جثّة. هذه المرّة أيضاً لن يُعثر على أيّ شيء قبل أن تندحر كتلة العتمةِ هذه عن الأرض، أو قبل أن تصعد تلك الرّمالُ، والسّهول، وحقول القمح إلى النّهار.

وربّما يعثر فلّاحون بسطاء على فتَيَين مرفقاهما مثنيّيْنِ إلى وجهيهما، يبدوان كأنّهما نائمين، مثل قاربين جَنَحا على عشب قاعٍ وادعٍ وذهبِه، وقد أغرقهما الليل.

فكرّ ريفيير في الكنوز المدفونة في أعماق الليل كما في أغوار البحار العجيبة... أشجار تفاح الليل تلك، التي تنتظر النهار بكلّ أزهارها، أزهارٌ لم تثمر بعد. ثريٌّ هو الليل، مُحتشدٌ بالعطور، والحِملان النائمةِ والزهور التي لم تتلوّن بعد.

شيئًا فشيئًا، ستخرجُ إلى النهارِ أثلام الأرض المُستمَدةُ والغابات المبتلّة والبرسيم النديّ. لكنْ، بين التلال، المسالمِ الآن، والمروج والحملان، وفي اعتدال العالم، ثمّة فَتَيان يبدوان نائميْنِ. وثمّةَ شيءٌ ما ينساب من العالم المرئيّ إلى الآخر المحجوب.

T

عرف ريفيير زوجة فابيان امرأةً قلقةً ومُحِبّةً: كأنّ ذلك الحبَّ قد أعير لها، لبرهةٍ، مثل لعبة أعيرت لِطفلٍ فقير.

فكّر ريفيير في يد فابيان التي تواصل التشبّث بمصيرها من خلال عصا القيادة لبضعِ دقائق أخرى. تلك اليد التي داعبت، تلك اليدُ التي حطّت على صدرٍ فأثارت موجاً وكأنّها يدٌ إلهيّة، تلك اليد التي حطّت على وجهٍ فغيّرته. تلك اليد التي كانت معجزة.

يهيم فابيان في بهاء بحرٍ من الغيوم، في الليل، وفي الأسفل الأبديّة. إنّه ضائعٌ بين كوكبات النجوم التي يسكنها وحيداً. ما زال يحمل العالم بين يديه ويهدهده على صدره. يضغطُ على مقودِه بثقل الثراء الإنسانيّ، ويمرّرُ، يائساً، من نجمة إلى أخرى، الكنزَ عديم الفائدة الذي ينبغي إعادته...

خُيّل لريفيير أنّ إحدى محطات اللاسلكيّ ما تزالُ تسمعه. وحدها موجةٌ موسيقية، نغمة خافتة ما زالت تربط فابيان بالعالم. ما من شكوى، ما من بكاء، بل أصفى صوتٍ صاغه اليأسُ على الإطلاق.

19

أخرجَه روبينو من عزلته:

- سيّدي المدير، لقد فكّرت... ربّما يمكننا محاولة...

لم يكن لديه ما يقترح، لكنّه كان يبدي إرادته الطيّبة. ودّ كثيراً لو وجد حلاً، وكان يبحثُ عنه كما لو كان حلًّا لأُحجية. كان دائما ما يعثر على حلول لا يصغي إليها ريفيّير أبدًا: «ها أنت ترى يا روبينو، في الحياة، لا توجد حلول، هناك قوىً تعمل: عليك أن تخلقَها والحلولُ تأتي لاحقا.» هكذا قصَر روبينو دوره على خلق قوةٍ تعمل، هي فرقة عمّال الميكانيك؛ قوة متواضعة تعمل، وتحمي من الصّدأ محاور المراوح.

غيرَ أنّ أحداث تلك الليلة جرّدت روبينو من سلاحه. فلم يكن لِلَقبِه كمفتّش أيّة سلطةٍ على العواصف، ولا على طاقم طائرةٍ من اثنين باتا شبحيْن، ولم يعودا يصارعان من أجل الحصول على علاوة الدّقة في المواعيد، بل لينجوا من العقوبة الوحيدة التي تبطلُ عقوباتِ روبينو: الموت.

كان روبينو، وقد باتَ عديم الفائدة الآن، يجول بين المكاتب بلا عمل.

أعلنت زوجةُ فابيان عن حضورها. مدفوعة بالقلق، كانت تنتظر في مكتب المعاونين أن يلتقيَها ريفير. كانوا يختلسون النظر إلى وجهها. وكانت تحسّ بالخجل وتتلفّت حولها متوجّسةً؛ فكلّ شيء هنا يرفضها: هؤلاء الرجال الذين يواصلون عملهم، كما لو كانوا يدوسون جثّةً، وهذه الملفّات حيث الحياة البشرية والمعاناة الإنسانية لم تعدْ سوى حسبة أرقام قاسية. كانت تبحث عن إشاراتٍ تخبرها شيئاً عن فابيان. ففي بيتها كلّ شيءٍ يذكّرها بغيابه: ملاءةُ السرير المُزاحة قليلاً، القهوة الجاهزة، وباقةُ الورد... لم تعثر على أيّة إشارة. كان كلّ شيء يتعارض مع العطف والصداقة والذكريات. والجملة الوحيدة التي سمعتها - إذ ما من أحدٍ تحدّث بصوتٍ عالٍ أمامها، كانت لعنةً أطلقها أحد الموظفين وهو يطلب قسيمة إيداع. «...قسيمة إيداع المولِّدات، لعنك الله! تلك التي أرسلناها إلى سانتوس. رفعت بصرها إلى ذلك الرجل باندهاشٍ كبير، ثمّ إلى الجدارِ حيثُ امتدّت خارطة. وشفتاها ترتجفان قليلاً، أو تكادان.

كانت تدرك، بشيء من الحرج، أنّ وجودها هنا يعبّر عن حقيقةٍ معادية، فكادت تندمُ على قدومها وودّت لو تُخفي نفسها. وكانت تمسك نفسها، خشية أن يلاحَظَ وجودُها أكثر مما ينبغي، عن السّعال أو البكاء، وقد وجدت نفسها غريبة وفي غير محلّها، كما لو أنّها عارية. لكنّ حقيقتها كانَت من القوة بحيث كانت النظرات الخاطفة تصعد خلسةً وبلا كللٍ لتقرأها على وجهها. كانت تلك المرأة جميلة جدّاً، بحيث تكشف للرجالِ عن عالم السعادة المقدّس، وتظهر أيَّ مادّة مقدّسةٍ يعبثُ بها الإنسان دون أن يدري في سعيه للفعل والإنجاز. وتحت وطأة تلك النظرات الكثيرة، أغمضت عينيها. كانت تُظهر أيّ سلام يمكن أن ندمّره من دون أن ندري.

استقبلها ريفير.

لقد جاءت لتدافع بخجل عن أزهارها، وقهوتها الجاهزة، وجسدِها الفتيّ. مرةً ثانيةً، في ذلك المكتب الأشدّ برودةً بعد، انتابتها ارتجافة الشفتين الخفيفة. هي أيضا اكتشفت حقيقتها الخاصّة، في هذا العالم الآخر، حقيقة يتعذّر التعبير عنها. فكلّ ما شبَّ فيها من حبٍّ يكادُ يكون وحشيّاً، لفرط اتّقاده، ومن تفانٍ، بدا لها وكأنه اكتسى هنا وجهاً آخر، متطفّلاً وأنانيّاً، فودّت لو تهرب:

- هل أُزعجك...

- كلّا يا سيدّتي أنت لا تزعجينني، أجاب ريفير. للأسف يا سيدتي، ليس في وسعنا أنت وأنا سوى الانتظار.

بدرت منها هزّة كتف خفيفة فهم ريفير مغزاها: «ما جدوى ذلك المصباح، وذلك العشاء المُعدُّ، وتلك الأزهار التي سأعود إليها بعد قليل...» ذات يومٍ اعترفت أمٌّ شابة أمام ريفير: «لم أستوعب موتَ طفلي حتّى الآن. إنَّ الأشياء الصغيرة هي الأقسى، ملابسه، وهذا الحنانُ الذي يجتاحُ قلبي حينَ أستيقظُ ليلاً، وقد صار منذ الآن بلا جدوى، مثل حليبي...». وبالنسبة لهذه المرأة أيضاً، سيبدأ موت فابيان غدا، في كلّ فعلٍ سيكون عبثيّاً منذ الآن، وفي كلّ شيءٍ من حولها. سيرحل فابيان عن منزلِهِ شيئاً فشيئاً. كان ريفير يكتم شعوراً عميقاً بالشّفقة.

- سيّدتي...

انسحبت الشابة، تعلو وجهها ابتسامة شبه ذليلة، جاهلةً ما تملك من قوّة.

جلس ريفير، مُثقلاً بعض الشّيء.

«لكنّها ساعدتني في العثور على ما كنتُ أبحثُ عنه».

كان ينقر بشرودٍ على ملفّ برقيات الطقس المرسلة من محطات التوقّف الشمالية. ثمّ سرحَ بفكره.

«إنّنا لا نطلبُ أنْ نكونَ خالدين، وإنّما ألّا نرى الأفعال والأشياءَ تفقدُ معناها فجأةً من حولنا. فيتبدّى،عندها، الخواء...»

وقعَ نظره على البرقيّات:

«عبر هذه يتسلّل الموتُ إلينا؛ هذه الرّسائل التي لم يعدْ لها أيّ معنى».

ثمّ نظرَ ريفير إلى روبينو، لم يعد لهذا الشابّ ضعيف المقدرة، الذي باتَ الآن بلا نفع أيُّ معنى.. قال له بنبرةٍ لا تخلو من قسوة:

- هل عليّ أن أخبرك بمهامّ عملك؟

ثمّ دفع ريفير الباب المفضي إلى قاعة المعاونين، فهالَه اختفاءُ فابيان الملموسُ بفعل علاماتٍ لم تفلح زوجةِ فابيان في رؤيتها. فبطاقة المعلومات عن الـ R.B.903، طائرة فابيان، كانت معلّقة سلفاً على لوحةِ الحائط ضمن فئة المعدّات غير المتاحة. وكان المعاونون الذين يعملون على إعدادِ أوراق طائرة أوروبا يتراخون لِعلمهم بأنّها ستتأخر. وفي الميدان، كانوا يسألون عن التعليمات لِفرق الرصد التي باتت تسهر الآن بلا هدف. كانت وظائفُ الحياةِ قد تباطأت. «ها هو الموتُ!» فكّر ريفير.

كان عملُه أشبه بمركبٍ شراعيّ مُعطّلٍ، بلا رياحٍ، وسط البحر.

سمَع صوتَ روبينو:

- سيديّ المدير... لم يمضِ على زواجهما سوى ستّةِ أسابيع...

- اذهب لعملك.

كان ريفير يواصل النّظر إلى المعاونين ومَن وراءهم، أيّ العمّال والميكانيكيين والطيّارين، وكل من ساعدوه في عمله، بإيمان البنّائين. فكّر في المدن الصغيرة الغابرة التي كانت تسمعُ بوجود «جزرٍ» فتُشيِّد السفنَ لِتُحمّلها بالأمل، ولِيتسنّى للرجال أنْ يروا أملهم يفتح أشرعته فوق البحر. فيصير الجميع عظماء، وقد خرج الجميع من ذواتهم، بعد أن حرّرتهم سفينة. قد لا يسوّغ الهدفُ المرسومُ شيئًا، لكن الفِعل يحرّرنا من الموت. وأولئك الرجال يدومون بفضل سفينتهم.

وريفير أيضاً سيصارع ضدّ الموت، حينَ يعيد للبرقيّات معناها كاملاً، والقلقَ إلى فرق الرصد والمراقبة، وإلى الطيّارين هدفهم الخطير. حين تعيد الحياةُ لهذا العمل نشاطه، مثلما تنشّط الريح مركباً شراعياً في البحر.

T

20

لا تسمع محطّة كومودورو ريفادافيا شيئاً، لكنْ على بعد ألف ميل، وبعد عشرين دقيقة، تلتقطُ باهيا بلانكا رسالة ثانية:

«إننا نهبطُ. ندخلُ في السُّحب...»

ثمّ ظهرت هاتان الكلمتان من نصّ غامض في برقيّة التقطتها محطة تريليو:

«... لا شيء يُرى...»

هكذا هي الموجات القصيرة، نلتقطها هناك، لكنّنا نبقى هنا صمّاً، ثمّ يتغيّرُ كلّ شيء بلا سبب. ذلك الطاقم مجهولُ الموقع يتجلّى للأحياء على الأرض، منذ الآن، خارج الزمان وخارج المكان، ومن يكتب على أوراق محطات اللاسلكي البيضاء، منذ هذه اللحظة، شبحان.

هل نفد الوقود، أم أن الطيّار يلعبُ، قبل العُطْل، ورقته الأخيرة: أن يبلغ الأرض من دون أن يرتطم بها؟

الصّوت من بوينس آيرس يأمر تريليو:

«اسأله عن ذلك.»

تشبه محطّة الاستماع للرسائل اللاسلكية مختبراً: نيكل ونحاس وعدّادات وشبكةٌ من الموصّلات. رجالُ الرصد في سُترهم البيضاء، صامتين، كأنّهم عاكفونَ على إجراء تجربة بسيطة. يلمسون الآلات بأصابعهم المرهفة، يستكشفون السّماء المغناطيسيّة؛ سحَرة يبحثون عن عرق الذّهب.

- لا أحد يجيب؟

- لا أحد.

قد يلتقطون رسالةً تكون علامة حياة. لو أنّ الطائرة تصعد بأضوائها بين النجوم، لسمعوا تلك النجمة تغنّي...

تمرّ الثواني. تتدفّقَ مثل الدم حقّاً. أما يزالُ التحليق مستمرّاً؟ كلّ ثانيةٍ تمرّ تطيح بفرصة. وهكذا يمارس الزمن المتدفّق التدمير. ومثلما يصيب، خلال عشرين قرناً معبدا، فيشقّ طريقه في الصخر، ويحيل المعبد غباراً منثورا، فإنّ قروناً من الاستنزافْ تتجمّعُ في كلّ ثانيةٍ وتهدّدُ طاقم الطائرة.

كل ثانية تطيح بشيء.

صوتْ فابيان، ضحكة فابيان أو ابتسامته. ها هو الصمت يزحف ويتعاظم، ويرزح فوق طاقم الطائرة بثقلٍ كأنّه ثقل البحر.

ثمّ يلاحظُ أحدُهم:

- ساعة وأربعون دقيقة. هذا هو الحدّ النهائي لنفاد الوقود. يستحيلُ أنّهما ما زالا يحلّقان.

ثمّ سادَ السكون.

شيء مرير وغثّ يصعد إلى الشّفتين كما في نهاية سفرٍ طويل. شيءٌ ما وصل إلى نهايته لا يُعرفُ ما هو، شيءٌ ما مُقزّز. ووسط كل ذلك النيكل وتلك الشرايين النحاسيّة، يشعر المرء بالحزن نفسِه الذي يسود المصانع الخَرِبة. كلّ هذه المواد تبدو ثقيلة، عديمة الجدوى، ومهجورة؛ حِمْلَ أغصانٍ ميتة.

لم يبق إلّا انتظار النهار.

في غضون ساعاتٍ قليلة، ستبرز الأرجنتين كاملة في الضوء، ويبقى هؤلاء الرجال هنا، كمن يقفُ على الشاطئ مترقباً أمام شبكته التي يسحبُها، يسحبها ببطء وهو لا يعلمُ ما الذي تحويه.

أحسّ ريفير في مكتبه، بذلك الاسترخاء الذي لا تسمح به إلّا الكوارث العظيمة، حينَ يحرّر القدرُ الإنسانَ. طلب من رجاله أن يُخطروا مراكز الشرطة في كلّ أرجاء المقاطعة. ولم يعد بوسعه أنْ يفعل شيئاً آخر. عليه أنْ ينتظر.

لكنّ النّظام ينبغي أن يسود حتى في بيْت الموتى.

أشار ريفير إلى روبينو:

- برقيةٌ للموانئ الشمالية: نتوقّع تأخراً كبيراً لطائرة باتاغونيا. ولكي لا يتأخر أكثر إقلاع طائرة أوروبّا، فإنّنا سنُلحقُ طائرة باتاغونيا برحلة أوروبّا التالية.

انحنى قليلاً إلى الأمام. لكنّه بذلَ جهداً وتذكّر شيئا، كان شيئاً مهمّاً. آه! نعم. وحتّى لا ينساه قال:

- روبينو!

- سيّد ريفير؟

- ستكتب مذكرة. يُحظر على الطيارين تجاوز ألف وتسعمئة دورة للمحرّك، إنّهم يدمرون المحرّكات.

- حسناً، سيد ريفير.

انحنى ريفير أكثر قليلاً. إنه يحتاج قبل كلّ شيء إلى العزلة:

- هيا يا روبينو، هيّا يا صاحبي...

وارتعب روبينو لهذا المساواة أمام الظّلال.

T

21

كان روبينو يتجوّلُ مُغتمّاً بين المكاتب. لقد توقّفت الحياة في الشركة، لأنّ موعد إقلاع تلك الطائرة، المقرّر في الساعة الثانية ليلاً سيلغى، ولن تقلع بعد ذلك إلا نهاراً. كان الموظّفون المتجّهمون يواصلون المراقبة، لكنّها مراقبةٌ عديمةُ الفائدة. وكانوا يواصلون استقبال رسائل الطقس من محطّات التوقّف الشّماليّة بإيقاع منتظم، لكنّ عبارات «سماء صافية» و«بدر مكتمل» و«لا رياح» كانت توقظ فيهم صورةَ مملكة قاحلة؛ صحراء من قمرٍ وصخور. وبينما كان روبينو يقلّبُ، من دون أن يدري لماذا، ملفّاً كان يعمل عليه مدير المكتب، لمح هذا الأخيرَ واقفاً أمامه، منتظراً باحترامٍ لا يخلو من التكبّر وكأنّه يقول له: «على راحتك، أليس كذلك؟ إنّه لي...»

أدهش هذا الموقفُ من موظّفٍ أدنى رتبةً المفتّش، لكنْ لم يخطرْ في باله أيّ ردٍّ في تلك اللحظة. فسلّمه الملفّ غاضباً.

عاد مدير المكتب للجلوس بوقارٍ كبير. «كان عليّ أن أوبّخه،» فكّر روبينو. ثمّ لكي يتمالك نفسه، خطى بضع خطوات وهو يفكّرُ في المأساة. تلك المأساة التي قد تقوّض مشروعاً بأكمله، فصار حزنه حزنَيْن.

ثم تبادرت إلى ذهنه صورة ريفيير حبيس مكتبه هناك، حين قال له: «يا صاحبي...» لم يرَ رجلاً يفتقرُ إلى دعم الآخرين مثله.

شعر روبينو بشفقة كبيرة عليه. أخذ يقلّبُ في رأسه بضع كلمات غامضةٍ تنفع في إبداء التعاطف والمواساة. ثمّ أحسّ بشعورٍ جميلٍ أنعشه. طرق الباب، فلم يستجب أحد. لم يجرؤ على طرقه ثانيةً وسط ذلك الصّمت، فدفع الباب. كان ريفير هناك. تقدّمَ روبينو نحوه بخطواتٍ واثقةٍ لأول مرّة، كمن يمشي إلى صديق، متخيّلاً نفسه مثل رقيب ينضمُّ، تحت الرصاص، إلى جنراله الجريح، ويرافقه في الهزيمة، فيصبحُ أخاً له في المنفى. بدا روبينو وكأنّه يقول «أنا معك، مهما حدث».

كان ريفير يتأمّلُ يديه صامتًا، مطأطئ الرأس، وروبينو أمامه لا يجرؤ على الكلام، فقد كان الأسدُ يخيفه حتّى وهو مهزومٌ. كان روبينو يبحثُ عن كلماتٍ مفعمة أكثر فأكثر بنشوة الإخلاص، لكنّه كلّما رفع بصره وهمّ بالحديث التقى مجدّداً بذلك الرأس المنكّس، والشعر الرمادي، والشّفتيْنِ العاضّتيْن على المرارة! وأخيراً قرّر الحديث:

- سيّدي المدير...

رفع ريفير رأسه ونظر إليه. كان خارجاً من حلمٍ عميق جدّاً، بعيد جدّاً، لدرجة أنّه لم يلحظ، ربّما، وجود روبينو. ما من أحد قد عرف أيّ حلمٍ عاش، وأيّ شعورٍ اختبر، وأيّ حزنٍ استقرّ في قلبه. تمعنّ ريفير في روبينو طويلاً، بوصفه شاهداً حيّاً على شيء ما. أحسّ روبينو بالحرج. وكلما حدّقَ ريفير بروبينو أكثر، اتّضحت أكثر على شفتيه ملامح سخرية غير مفهومة. وكلّما حدّقَ ريفير أكثر في روبينو احمرّ وجه الأخير أكثر، وبدا أكثر لريفير أن

روبينو قد حضرَ إلى هنا كيْ يشهد، بحسنِ نيّة مؤثّر، وعفويٍّ للأسف، على حماقة البشر.

غزت الحيرة روبينو، فقد تبدّدت صورة الرقيب، والجنرال والرّصاصُ. كان أمرٌ عصيٌّ على التفسير يحدث. كان ريفيير يواصل النظر إليه، فعدّل رغماً عنه وضعيّته قليلا، مخرجاً يده من جيبه الأيسر. وريفيير ما يزال ينظر إليه. أخيرًا قال روبينو، بحرج بالغ، ودون أن يدري لماذا:

- جئت لتلقّي أوامرك.

أخرج ريفيير ساعته، وقال ببساطة:

- إنّها الساعة الثانية. ستهبط طائرة أسنسيون في الثانية وعشر دقائق. دع طائرة أوروبا تقلعُ في الثانيةِ والربع.

أذاع روبينو الخبر المدهش: لم تُعلّقْ الرحلات الليلية، إذن! توجّه روبينو لمدير المكتب:

- أحضر لي هذا الملفّ كي أدقّقه. وعندما صار مدير المكتبِ أمامه قال له روبينو:

- انتظر.

فانتظر مدير المكتب.

T

22

أَبلغتهم طائرة بريدُ أسنسيون بأنّها على وشك الهبوط. كان ريفيير يتابع، حتى في أسوأ الساعات، من برقية إلى برقية، سيرها الميمون. فقد كانت بالنسبة إليه، وسط تلك البلبلة، انتصارَ إيمانه، وبرهانَه. كانت تلك الرحلة الموفّقة تبشّر، عبر برقياتها، بألف رحلة أخرى موفّقة مثلها. «إنّنالا نواجه الأعاصير كلّ ليلة». وفكّر ريفيير أيضاً: «ما إنْ نخطّ الطريق، حتّى لا يعود بوسعنا إلّا أنْ نواصل السّير فيه.»

كانت الطائرة وهي تهبط، من محطّة إلى محطّة، من الباراجواي، كما من جنّة رائعة غنيّة بالزهور وبالبيوت الخفيضة والمياه بطيئة الجريان، تنزلق محاذيةً حافة الإعصار لكنّه لم يحجب عن رؤيتها أيّة نجمة. وكان تسعةُ ركاب، ملتحفين بطانيات السفر يلصقون جباههم بنوافذهم، كأنها واجهات عرضٍ مليئة بالجواهر، فمدن الأرجنتين الصغيرة كانت قد بدأت تنثر كلّ ذهبها في الليل، تحت الذهب الأكثر شحوباً، الذي تنثره مدن النجوم، بينما الطيّار في المقدمة، يمسكُ بين بيديه حمولته النفيسة من حيوات البشر، وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما ومشبعتان بضوء القمر، مثل راعي الماعز. كانت بوينس آيرس قد ملأت الأفق بنارها الورديّة، وستتوهج عمّا قريب بكامل أحجارها مثل كنزٍ خرافيّ. ومُشغّل اللاسلكي يطلق آخر البرقيات، مثل نوتات ختاميّة من سوناتا عزفها مبتهجاً وسط

T

السماء، ويفهم ريفيير غناءها. ثم سحب الهوائيّ، تمطّى قليلاً وتثاءب وابتسم: ها نحن نصل.

التقى الطيّارُ، بعد أن هبط، بطيّار بريد أوروبّا، كان يستند إلى طائرته، ويداه في جيبيه.

- هل أنت من سيواصل؟

- نعم.

- وهل وصلت طائرة باتاغونيا؟

- لم نعد ننتظرها؛ لقد اختفت. هل الطقس جميل؟

- جميل جدّا. هل اختفى فابيان؟

تحدثّا في الأمر قليلاً، فقد كانت أخوّةٌ عظيمة تغنيهم عن تبادل العبارات.

نُقلت إلى طائرة أوروبّا حقائب ترانزيت أسنسيون، وكانَ الطيّار، ثابتاً في مكانه، رأسه مائل للخلف مسنوداً للحُجرة، يراقبُ النجوم. كان يشعر بقوّةٍ هائلة تتولّدُ فيه، وأحسّ بلذّة عظيمة.

- انتهى الشحن؟ صاح صوت. شّغلوا المحرّك إذن.

لم يتحرّك الطيار. كانوا يشغّلون المحرّك. سيشعرُ عبرَ كتفيه المستندتيْنِ إلى الطائرة بالحياة تدبّ فيها. كان يتأكد، أخيراً بعد العديد من الأخبار الخاطئة: سيقلع... لن يقلع.... سيقلع؟ انفرجت شفتاه قليلا، و لمعت أسنانه تحت القمر مثل أنياب وحشٍ فتيّ.

- احترس، إنّه الليل، ها!

T

لم يسمع نصيحة رفيقه. كان قد بدأ ضحكةً صامتة، ويداه ما تزالان في جيبيه، ورأسه مرفوعٌ أمام غيومٍ وجبال وأنهار وبحار؛ ضحكةً خافتةً لكنها سرت فيه مثلما يسري النسيم في الشجر، وجعلت جسده كاملاً يرتعش؛ ضحكة خافتة، لكنها أقوى بكثير من تلك الغيوم والجبال والأنهار والبحار. - ماذا دهاك؟

- هذا الأحمقُ ريفير الذي... يظنّ أنّني خائف!

T

T

23

في غضون دقيقةٍ، ستعبر الطائرةُ بيونس آيرس، وريفيير الذي استأنف كفاحه، يريد أن يسمعها؛ أنْ يسمعها تولدُ، تَهدر ثم تغيب، مثل الخطوة المهيبة لجيش يتقدّم وسط النجوم.

يمرُّ ريفيير، معقودَ الذراعيْن، بين المعاونين. ويتوقّف أمام نافذة، يصغي ويفكّر.

لو أنّه أجّل انطلاق رحلةٍ واحدةٍ، لَخسِر تماماً قضيّة رحلات الطيران الليليّ، لكنّه، مستبقاً الضعفاء الذين سينكرون عليه ذلك في الغد، أرسل إلى اللّيل الطائرة الأخرى.

النصر... الهزيمة... هاتان كلمتان بلا معنى. الحياةُ موجودة تحت هاتين الصورتين، تُعِدّ سلفاً صوراً جديدة. فربَّ نصرٍ يوهنُ شعباً، وربّ هزيمةٍ توقظ آخر. ولعل الهزيمة التي مُني بها ريفيير تكون التزاماً يقرّبه من النصر الحقيقي.

وحده الحدثُ في سيرورته ما يعتدّ به.

في غضون خمس دقائق سَتُرَسل البرقياتُ لإبلاغ محطّات التوقف جميعها، وعلى امتداد أكثر من خمسة عشر ألف كيلومتر، ستذلّلُ رعشةُ الحياةِ كلّ الصعوبات.

ها هو ذا نشيد أرغن يتصاعد.

عاد ريفيير بخطوات بطيئة إلى عمله، بين معاونيه الذين تدفعهم نظرته القاسية إلى الانحناء. ريفييرُ العظيم، ريفيير الظّافر، حاملاً على ظهره عبء انتصاره الثقيلِ.

N I G H T F L I G H T

روايات



طيران ليليّ

تعدّ رواية (**طيران ليليّ**) واحدةً من كلاسيكيات الرواية الفرنسيّة في القرن العشرين، وواحدةً من أهمّ أعمال **أنطوان دو سانت إكزوبيري**، وقد ضمنت لمؤلفها فور صدورها، سنة 1931، بتقديم من **أندريه جيد**، مكانًا بارزًا إلى جانب أهمّ كتّاب جيله مثل **مالرو وكامو**. حظيت الرواية بنجاح كبير لم ينل منه تعاقب السنين، إذ بيع منها ما يزيد عن ستّة ملايين نسخة عبر العالم.

يطرح صاحب (**الأمير الصغير**)، في روايته هذه السؤال الجوهريّ: ما الّذي يفوق حياةَ الإنسان قيمة، ويستحقّ أن يضحّى بها من أجله؟ ويصوّر بلغته الشاعريّة وسرده الذكيّ ذي النبرة الملحميّة كفاح الإنسان من أجل تجاوز نفسه بحثًا عن المعنى، عبر مغامرة التحليق ليلا في بدايات الطيران التجاريّ الأولى، مطلع القرن العشرين.

ولعل أهميّة الرواية تكمن في ما شدّد عليه **أندريه جيد** في مقدّمته:

«ما يعجبني على وجه الخصوص، في هذه القصّة المؤثّرة، هو نبلها، فنحن نعرف أكثر ممّا ينبغي حالات الضعف والخذلان، وسقوط الإنسان، والأدب في أيّامنا ماهر للغاية في كشفها. لكنّ تجاوز الذات، الّذي تنجح فيه الإرادة الطموحة، هو ما نحتاج تحديدًا أن يصوّر لنا».

ISBN 978-6589-09-910-9







الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2019
الغلاف: 95297109 7 00962